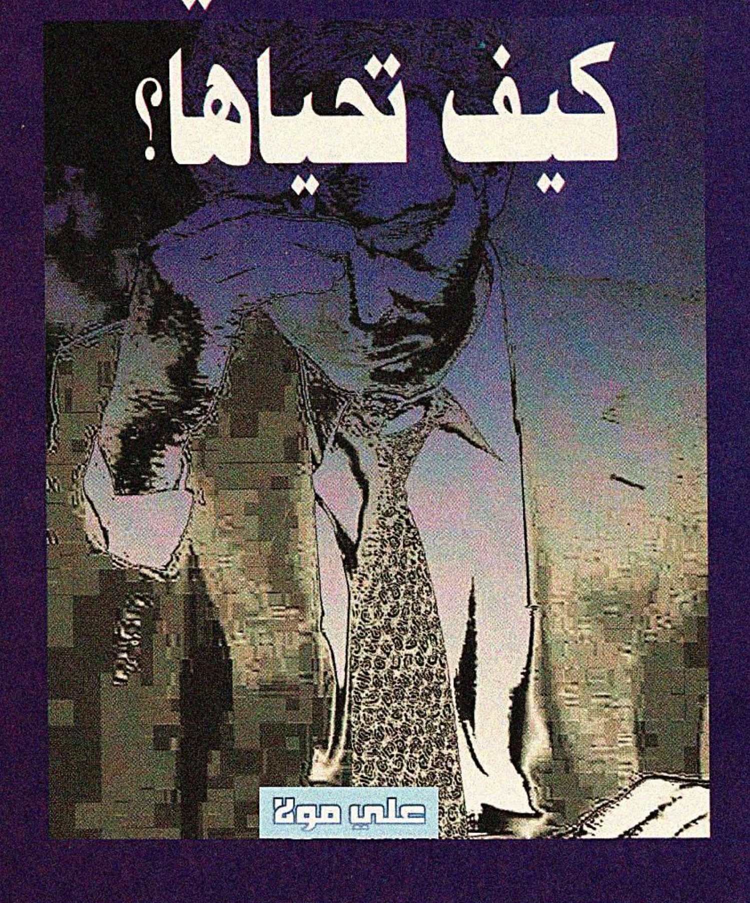
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

الفرد أدلر

سيكولوجيتك في الحياة

كيف تحياها؟



تعريب:
أ.د. عبد العليّ الجسماني

سيكولوجيتك في الحياة:
كيف تحياها؟

سيكولوجيّتك في الحياة كيف تحياها / علم نفس
ألفرد آدلر / مؤلّف
د. عبد العليّ الجسماني / معرِّب
الطبعة العربية الأولى ، ١٩٩٦
حقوق الطبع محفوظة



نشر مشترك :
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقة الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ١/٨٠٧٩٠٠
تلكس LE/ DIRKAY ٤٠٠٦٧



الدار العربيّة للعلوم
بناية الريم، شارع ساقية الجنزير ، عين التينة
هاتف ٨٦١٣١١-٨٦٠١٣٨-٨١١٣٨٥ ، ص.ب : ١٣-٥٥٧٤
بيروت ، لبنان / هاتف وفاكس دولي: ٠٠١(٢١٢)٤٧٨٢٤٨٦
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع ، عمّان
ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس ٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفني :
®
لوحة الغلاف :

الصف الضوئي :
ساجدة العجوة ، عمّان

سيكولوجيتك في الحياة: كيف تحياها؟

تاليف: ألفرِد آدلر

تعريب: أ.د. عبد العليّ الجسماني





الطبعة الأولى

1417 هـ - 1996 م



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

عين التينة شارع ساقية الجنزير - بناية الريم
هاتف: 785107 - 603118 - 860138 (961-1)
هاتف وفاكس دولي: 478-2486 (212) 1 - ص.ب. 13-5574 بيروت - لبنان
بريد الكتروني: email: bchebaro.arabpubl@dm.net.lb
العنوان على شبكة الانترنت: http://www.dm.net.lb/asp/index.html

المحتويات



مقدمة المعرّب

سيكولوجيتك في الحياة : كيف نحياها ؟

- ١ -

سيكولوجيتك في الحياة : كتاب أودع الفريد أدلر صفحاته خلاصة تجاربه و خبراته . الفريد أدلر طبيب الأمراض النفسية المعروف ، من أصل نمساوي ، و مؤسس مدرسة علم النفس الفردي ، يعارض التحليل النفسي (الفرويدي) في تضخيمه للجنس .

يؤكد أدلر في منهجه التحليلي و العلاجي دور (الأنا) الشعوري ، و فاعلية الأهداف التي يسعى اليها المرء في الحياة ، الأهداف التي يجب ان تكون منسجمة مع أهداف المجتمع و أن تكون إنسانية و مشروعة .

لذا نجد أدلر في سيكولوجيته يعزز أهمية الأهداف التي تنمّ عن نضج في مقابل الأهداف الطفولية التي تتسم بالفجاجة .

يذهب أدلر إلى أن إضطرابات السلوك ، و الأعراض العصابية التي تنشأ عن التعويض الزائد عما يعانيه الشخص معاناة لاشعورية . وهذا النقص المحسوس ، غير المنظور ينجم من نقص، و قصور، وشعور بالدونية، وما يصيب نزعة الفرد إلى التفوق ، و العلو ، من إحباط و حرمان .

يرى أدلر ، وهو على صواب فيما يذهب إليه ، أن أهداف الإنسـان الرئيسية ، تتلخص في :

١- التوافق الاجتماعي.
٢- النجاح المهني .
٣- الإشباع العاطفي بالشكل المشروع .
٤- الإرتواء الروحي .

يكثر أدلر التحدث في مؤلفاته ، و في مؤلفه هذا بالذات ، عن عقـدة النقص ، أو عقدة الدونية ، و يراها ، المتحكمة لا شعورياً بسلوك الفرد . و يعرفها بأنها مجموعة من الأفكار ذات شحنة انفعالية قوية ، تـدور حـول ما يشعر به الفرد من قصور حقيقي أو وهمي . هذا الإحسـاس الشـعوري منه و اللاشعـوري يدفـع الشـخص ، إذ يشـعر بـالنقص ، إلى التعويـض . وهذا السلوك التعويضي يمكن أن يحقق للشخص أهدافاً ذاتية أو اجتماعيـة قيمة ، هذا في حالة النجاح . أمـا إذا أخفـق التعويـض ، فـإن المآل الـذي ينتهي إليه الشخص هو العصاب .

ذلك هو ملخص رأي أدلر بشأن عقـدة النقـص و التعويـض . وهـو رأي يخالف بعض الشيء آراء زملائه من أمثال فرويد و يونج.

فيونج تكلم عن عقدة النقص عرضاً و حيثما إقتضت الضرورة ذلك ومتى دعت الحاجة . إذ كانت اهتماماته تتمحور حول اللاشـعور الجمعـي و التحليل النفسي للأثر الإنساني كمـا يسـتمد مـن حيـاة المـرء اليوميـة ، ويتساوى في ذلك منطوق النتاج الشخصي .

أما فرويد فله مجالاته المتعددة أيضاً ، و حـين يتحـدث عـن العقـدة ، فأنه يعرفها بأنها مجموعـة مـن الانفعـالات و الأفكـار المكبوتـة الناتجـة عـن

خبرات صراعية ذات شحنة وجدانية متأججة محتدمة . و العقــدة، بـالرغم من إنها لا شعورية ، فأنهـا تؤثـر في التفكـير وفي السـلوك ، إذ هـي تطبـع السلوك بطابع الانحراف و الشذوذ ، كعقدة أوديب لدى الأولاد ، وعقدة اليكترا عند البنات .

علـم النفـس الفـردي نظريـة صاغهـا الفريـد أدلـر ، حتـى أصبحـت مدرسة من المدارس الفكرية في علم النفس المعاصر ، و تقـوم علـى القـول بأن لكل فرد صياغة فريدة مـن الدوافـع ، و السـمات ، و الاهتمامـات ، والقيم .

تذهب نظرية أدلر الخاصة بعلم النفس الفردي إلى أن كل فعلٍ يصدر عن الشخص يحمل أسلوبه المتميز الذي يجعله متفرداً عن غيره . وهنا تبرز نقطة بالغة الأثر في هـذا الشـأن ، ذلـك انـه طبقـاً لهـذه النظريـة لا يكـون للدوافع الجنسية التي أكدها فرويد في حياة كل إنسـان ، لا يكـون لهـا إلا دور ثانوي حسب منطق علم النفس الفردي . وهذا مما جعل علم النفـس الفردي ، كما صاغه أدلر ، اكـثر تقبـلاً مـن لـدن معظـم المختصـين بعلـم النفس .

أكد أدلر في علم النفس الفردي أن أسلوب المرء في الحياة هو الــذي يحدد الطريقة التي يتبع بها حاجاته الحيوية : الجسمية ، الفسـيولوجية منهـا و النفسية على النحو القويم .

وهذا النهج من شأنه أن يضفي على الشـخص نوعـاً مـن الخصـائصٍ يتفرد بها وحده .... وهذا النهج من شأنه أن يضفي على الشــخص نوعـا من الخصائص يتفرد بها وحــده ، وهـذا أيضـاً يجعـل ثمـة مـن الفـروق بـين الأشخاص ما يمكن أن تؤدي الى فـروق سلوكية تسبـغ على كـل فـرد مـا

يميزه عن سواه ، أيّاً كان سلوكه : إيجابياً أم سلبياً .

ففي كتابه : *سيكولوجيتك في الحياة* ، يناقش أدلر وضع الإنسان في حياته هذه منذ لحظة إطلالته على الدنيا ، مروراً بما يتعرض له وكيف يؤثر كل ذلك في وضعه النفسي و العقلي ، وفي تكيفه الاجتماعي ، و انتهاءً بما يؤول إليه كل ذلك من سلوكيات ، منها ما يرضي الأخلاق و النواميس الاجتماعية ، ومنها ما ينغّص على الآخرين معايشهم الحياتية .

فالفردية ليست مجرد جانب من جوانب الجسم ، لأنها أيضاً تكوّن صفة جوهرية لكل جزء مركّب من أجزاء جسم الفرد ، و لكنها تظل تقديرية نسيجها كله فطري و تنشيئي. ومع ذلك فإنها لا تلبث أن تبسط صفاتها و أفعالها بالتدريج على بيئتها كلما انتشر تأثير الفرد في الزمان والمكان .

كل شخص يستجيب لظروف بيئته بطريقته الخاصة ، متأثراً بماضي تنشئته : قسوة كانت أم تدليلاً مفرطاً . فيختار بعد أن يشتد عوده ، ما يزيد من تفرده بين ظهراني المجتمع : فقد يسهم في البناء الخيّر أي إسهام ، وقد يعكّر صفو الحياة فيزيد في غباشتها و إظلامها أي إظلام .

- ٢ -

المفروض أن يصبح الفرد مركزاً لوجوه نشاط محددة. كيف؟ أن الإنسان جسد وروح . وان الروح يفترض أن تصفو من الاوضار . وان الروح ، كما هو معلوم ، جوهرة الجسم ، فلا يمكن فصل الروح عن الجسد ما بقي الإنسان حياً ، ولا يمكن فصل هيكل الجسد عن وظيفته ، ولذلك فإن المرتقب هو أن يتأتى السلوك كما يرتضيه الوسط الاجتماعي

وليس خروجاً عليه وعلى نواميسه .

في علم النفس يميز أدلر بين الإنسان و الفرد . الفرد إنسان ، و هو في ذلك لا يماري . يرى أدلر أن الفرد الذي تتحقق جميع إمكانياته لا يشبه الإنسان الذي يصوره الأخصائيون . إن الفرد عند أدلر أكثر بكثير من مجموع الحقائق التي كدستها العلوم الخاصة . إننا لا نفهمه في كليته .... لأنه يشتمل على مناطق شاسعة مجهولة . كما إن إمكانياته لا تكاد تنفد ، فهو ، كجميع الظواهر الطبيعية الهائلة ، لازال غير مفهوم ، رغم التقدم الفسيح الذي حققه علم النفس الحديث .

ينعقد الإجماع بين علماء النفس على أننا حينما نتأمل الفرد على ضوء تناسق نشاطه العضوي و الروحي ، فإننا نحس إزاءه – وهو إحساس نحو أنفسنا بطبيعة الحال – بعاطفة عميقة من تقدير هذا التكوين العجيب. إن مثل هذا الفرد ، إذا ما أحسنا تقويمه ، إنما هو حقاً مبدع في هذا العالم.

يرمي أدلر فيما يرمي إليه ، إلى الحرص على أن ينعم المجتمع بالطمأنينة و الاستقرار. لكنه يرمي في ذات الوقت إلى أن يعيش الفرد في كنف المجتمع معترفاً بفرديته لينعم هو أيضاً بالعيش الهنيء .

فأدلر لا يرى مبرراً إلى أن يتجاهل المجتمع الفرد ، ولا يحسب حساباً إلا للمجموع ممن يطلق عليهم : (بنو الإنسان) ، بصيغة الجمع . ولذا يخلص أدلر إلى أن الخلط بين الفرد و بني الإنسان يفضي إلي إضطراب الآراء يترتب عليه عدم التميز بين فرد و فرد من حيث الفروق الفردية . فلو أننا كنا متساوين – نحن البشر – لأمكن أن يتساوى الناس جميعهم في السلوك و العطاء . بيد أن لكل منا شخصيته و فرديته الخاصة ، ولا يمكن أن يعامل كل واحد و كأنه شاخص جامد أو ينظر إليه و كأنه

مجرد رمز لمخلوق آدمي و حسب .

بالطبع ، يؤكد أدلر في كتابه هذا : *سيكولوجيتك في الحياة* ، على أنه لا مفرّ من وجود المدارس ، فهي تحقق إلى حد ما ، حاجة الطفل إلى الاتصال بغيره من الأطفال الآخرين ، لكن لا مندوحة من التوجيه الصائب فلا يجب أن يكون التعليم مصاباً بالشلل أو يتبطنه الخلل . والتوجيه الصائب هو الأساس الذي تبنى عليه بقوة فردية الفرد ، و أنه يعود إلى الوالدين بالدرجة الأولى ، فهما وحدهما ، و بالأخص الأم ، يلاحظان ، وقد لاحظا منذ شبّا الصفات الفسيولوجية و العقلية التي يهدف التعليم المفعم بالتربية إلى تنظيمها و توجيهها .

ينحي أدلر باللائمة على المجتمع ، حين استبدل المدرسة بالأسرةٍ (*) ، وعدّها (غلطة جسيمة) عندما اصبح هذا الاستبدال استبدالاً تاماً . فتترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة و الانصراف إلى أمور معظمها توافه ، ويضيّعن أوقاتهن فيما لا طائل من ورائه ، ولكنهن يضيّعن معه ما هو أعز وما ينطوي على أغلىٍ الأماني لهن ولمستقبل المجتمع و لمستقبل أبنائهن ، لو تدبرنا العواقب ملياً .

يجد القارئ في تضاعيف هذا الكتاب آراء مبثوثة ، يؤكدها أدلر ، من ذلك مثلاً أنّ إهمال المؤسسات الإجتماعية للفردية يترتب عليها ضمور الراشدين . وهو يعلل ذلك أن الإنسان لا يتحمل ، دون أضرار ، تبعات الحياة الثقيلة ، و رتابة العمل ، وضغوط التفكير إلى ما لانهاية .

---

* الباء تدخل على المتروك ، في القرآن الكريم ﴿ *أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير* ﴾.

ولعل أدلر يذكر ذلك وفي خاطره ما يسمي في علم النفس بـ (*عتبة التحمل*) Threshold التي تكوّن الحدود الفارقة بين الأفراد. إذ لا يتسنى لجميع الأفراد أن يكونوا على درجة واحدة من قوة تحمل أثقال الحياة بمسئولياتها الجسام .

نحن الآن في عصر ينادي فيه العلماء و المفكرون بضرورة أن يعيد الإنسان صياغة نفسه حتى يستطيع مواجهة ما سيأتي به القرن الحادي والعشرون . و أرى أن خير تعبير عن ذلك يعكسه لنا قول الكسيس كاريل، في كتابه : *الإنسان ذلك المجهول* * ، إذ يذكر :

(إنّ العلم الذي حوّل العالم المادي يمد الإنسان بالقوة على تحويل نفسه . قد كشف له عن بعض ميكانيكيات الحياة السرية . و أراه كيف يعدل حركته ، وكيف يصوغ جسمه ، و روحه في قوالب و نماذج ولدتها رغباته . فلأول مرة في التاريخ أصبحت الإنسانية ، بمساعدة العلم ، سيدة مصيرها ....) .

كل إنسان ينشد التفوق و يسعى جاهداً إلى بلوغه . لكن أساليب بني البشر إلى تحقيق هذا الهدف تختلف من فرد إلى آخر . و أسباب هذا الاختلاف ، إذا ما تحريناها ، نجدها كامنة في وراثة الإنسان و سوابق تربيته . فهناك من الناس من ينشأ مدللاً، وقد أفسده التدليل ، فيظن أن الدنيا كلها ، إذن ، يجب أن تستجيب لنزواته .

وهناك من يشب وقد عانى من الحرمان ، فلما أشتد ساعده ، طفق يحاول الانتقام تعويضاً عن حرمانه .

---

* تعريب شفيق أسعد فريد ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٩٨٠

وثمة من نشأ وهو وليد القسوة و العنت فلما آنس في ذاته القوة ، يشرع برد القسوة و العنف إلى مصدره أو إلى من يرمز إليه : فيرده إلى المجتمع لأنه رمز سطوة الأبوين أحدهما أو كليهما .

ونجد هناك المعوّق لأسباب ولادية أو عارضة . فينتهج أحد طريقين: أما التعويض إلى الأحسن فيبنى تفوقه بما يغطي على العاهة بشكل مشكور، و أما أنه يبتدع ما يحسبه هو أفضل إليه فيقوم بكل ما هو مبتذل ومنكور .

وهناك من الأفراد من يقعون ضحايا التغرير أو الإغراء ، أو الإغواء ، أو التهديد ، فينحرفون انحرافات لا تضرّ بهم وحدهم ، و إنما ينال شررها و شرورها المجتمع . وهذا مكمن الخطر . ذلك لأن عنف الشباب و قلة درايتهم بعواقب السلوك الشاذ ، يكون ضرره أخطر ، قد لا يتم تلافيه إلا بعد فوات الأوان .

يجدر أن تكون المعرفة أساس توجيه الإنسان . و أول واجب ينبغي أن نأخذ به هو أن نجعل منه معرفة نافعة . وإذا ما توخى الإنسان ذلك ، فإن عليه أن يعمد إلى إعادة صياغة الإنسان في نهاية هذا القرن ، ليكون الإنسان مهيأً لمتطلبات القرن الحادي و العشرين .إن المعرفة الدقيقة بعلم الإنسان يجب أن تنبثق من معرفة حقيقية بجسمه و روحه و تنشئته : أي معرفة دقيقة بسيكولوجيته في الحياة ، و أعني بها حياته اليومية .

وصياغة الإنسان في عالم متجدد لا تستلزم إنشاء مؤسسات باهظة التكاليف . و إنما المؤسسات والمعاهد الحالية تفي بالغرض في عالمنا العربي، ولكن ينبغي أن يعاد إليها شبابها. وهذا يتطلب تضافر جهود الجهات الرسمية و الجهات المعنية بتعاون أبناء المجتمع كافة .ولعل للجامعات دور

الريادة في هذا المضمار .

-٣-

لكي ننقذ المجتمع من أي ضمور يمكن أن يتهدده في كيانه ، وفي أمنه و استقراره ، يجب إنقاذ الفرد من ذلك : إنقاذه من حالات الضمور العقلي و الأدبي و الفسيولوجي و النزوعي ، أي النزوع الذي قد يأخذ به إلى الشر و المروق . لا تتمارى العلوم الإنسانية فيما بينها : علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الأخلاق ، و علم الاقتصاد ، و العلوم التربوية ، لا تتمارى في أن إنشاء أطرنا الاجتماعية المبنية على الأسس النفسية ، من شأنها أن تعزز من رصانة الوازع الخلقي في حياتنا العقلية و الروحية والمادية .

لا ينبغي لنا أن نغفل حقيقة تنساب في ثنايا حياتنا الاجتماعية اليومية و تعايشها ، ولكننا في غمرة أعباء الحياة ننساها أو نكاد . تلك الحقيقة هي أن هناك للفرد بيئته النفسية الخاصة به ، كما أن هناك للإنسان بصفته الجماعية ، بيئته النفسية .

البيئتان كثيراً ما تفترقان ، وقلما تتفقان . و المفروض أن يروّض الفرد نفسه على أن تنسجم نوازعه و نفسه مع المتطلبات الاجتماعية العامة لكي ينعم هو كفرد وينعم المجتمع كله بحياة الأخلاق و الوئام . وهذا منحى لا أحسب يختلف عليه اثنان . أنه لضرورة يأتلف بشأنها المتخالفون ، ويتفق عليها المتخاصمون .

فالفرد إذا وقف وحيداً ، وحبّد لنفسه أن يكون هو مجتمعاً قائماً بذاته ، فلن يستطيع أن يقاوم طويلاً بيئته النفسية ، و المادية ، و العقلية ،

و الاقتصادية . و إذا هو حاول ذلك ، فلا يتمكن من الاستمرار إلى ما لا نهاية .

تؤثر العوامل التربوية و الأخلاقية و العقلية في كل فرد بطريقة مختلفة. فثمة أشخاص ضعفاء أو أقوياء ، شديدو الحساسية أومعدوموها، أنانيون أو عادلون ، أذكياء أو بلداء ، نشيطون أو متكاسلون .... الخ ، كل فئة من هؤلاء يتفاعلون بطريقتهم الخاصة مع كل عامل سيكيولوجي في حياتهم التي إليها يهدفون . وكل الإجراءات الاجتماعية و الاقتصادية يجب أن تأخذ العوامل الملمح إليها تواً في الحسبان . فالإنسان يبلغ نموه أقصى مداه في الجو السيكولوجي الذي يوفره قدر معتدل من الأمن الاقتصادي الذي لا يجعل الفرد إتكالياً ولا يجعله ناقماً . ولا مناص في هذه الأحوال من تهيئة الفرد ليشحذ إرادته و ليكون عوناً لنفسه و لمجتمعه ، بعيداً عن الأنانية و الإتكالية : فكلتا النزعتين سلاح فتّاك ، يفتك بالفرد وبالمجتمع. ذلك لأن استعمال التأثيرات السيكولوجية بحكمة قد يفضي الى وقف فقدان كنوز عقلية و أدبية و إجتماعية قبل أن تغوص في لجة الانحلال الأخلاقي و التحلل الإجتماعي .

في كتابه هذا الذي نحن بصدد التقديم إليه ، وفي كتبه الأخرى ، ومنها مثلاً :

١- علم النفس الفردي : علماً و عملاً .
٢- فهم طبيعة الإنسان .
٣- فهم طبيعة الطفل .
٤- سيكولوجيتك في الحياة .

في كتبه هذه كلها يؤكد أدلر على أن كل فرد يجب أن تؤخذ في الحسبان خصائصه الشخصية ، وصفاته العقلية ، و قدراته

الفكرية . فهذا أمر طبيعي . إذ أن توافق الفرد مع محيطه الطبيعي و الاجتماعي يتوقف تماماً على طبيعة العمل الذي يؤديه تبعاً لمؤهلاته العقلية و البدنية . في هذه الملاءمة بين القدرات العقلية و المناشط الحياتية ، يتحقق الرضى و يبدع الفرد .

كان الشاعر و الكاتب اليوناني الشهير سوفوقليس ، مؤلف مسرحيات (*أوديب ملكاً*) ، و(*أوديب في كولونا*)، و(*إليكترا*) ، قد قال :

(*كثيرة هي عجائب الدنيا ، و أعجبها هو الإنسان*) .

قال سوفوقليس رأيه هذا في القرن الخامس قبل الميلاد . و كان ، ولا زال ، أعجب عجائب الدنيا ، هو الإنسان ، و سيبقى كذلك .

فالإنسان ، من وجهة نظر سيكولوجية ، لا يزال قارة مجهولة ، لم تكتشف كل أرجائها بعد ، رغم تقدم العلم و المعرفة . الإنسان يتحرك بعقل و إرادة وشعور و طموح و هدف . فهو المخلوق الوحيد الذي يفكر و يعي و يخطط . وهو الكائن الوحيد الذي يستقري الماضي ، ويتأمل الحاضر ، و يستشرق المستقبل .

و الإنسان المخلوق الوحيد الذي يفعل وهو يعرف ماذا يفعل أو ما هو فاعل ، أو ما يريد أن يفعل . فعل الإنسان يمثل الإنسان نفسه ، والفعل إلى فاعله ينسب . وكان مؤسس مدرسة تاريخ السيكولوجيا الفرنسية ، ي . ميرسون ، قد قال :

(بالنسبة لنا أن الفعل يفترض بشكل طبيعي تماماً الشخص الفاعل ، و الشخص يعني الفرد ، و الشخص الفاعل يقع بشكل ما خارج الفعل – وبه يلتصق –أن ميّزة الفاعل هي ميّزة هامة للفرد– و العكس بالعكس).

في علم النفس الحديث ثمة ما يطلق عليه طوبوغرافية النفس ، و يراد بذلك محاولة تحديد أماكن حدوث العمليات النفسية في الجهاز النفسي . فهناك مثلاً ، النفس الشعورية Thymopsyche ، وهي طبقة من الشخصية تتجمع عندها الدوافع ، و الميول ، و الحاجات ، و الرغبات ، وهي طبقة تتوسط بين طبقة الوظائف العضوية الجبلّية ، و طبقة المشاعر الراقية و الفكر و الإرادة .

و السؤال الذي يجدر أن يثار الآن هو : هل تمكنت المشاعر الراقية أن تزمّ من نزوات بعض الأفراد إنّ لم نقل كثير منِ الأفراد ممن يرين الشر على ميولهم فيعمدون إلى التدمير و التخريب بدلاً من (التعاون) الذي يدعو إليه أدلر ويعده أساساً للسيكولوجية الفردية القويمة!

الحياة ثقيلة بوطأتها.. وهي تكون أثقل إذا ما وجد فيها من بني البشر من يزيدونها جفافاً على جفاف . نحن يجب أن نتفاءل لندرأ شيئاً من أعباء الحياة . ولكن ما بال من يعيش بين ظهراني المجتمع فلا يزيده إلاّ تخريباً . فنحن بغير التفاؤل و التفاعل و التضافر تهصرنا الحياة التي يشبهها الدكتور طه حسين :

(.. كأنها صحراء ، عريضة مقفرة ، محرقة الشمس غليظة الأرض ، مضطربة الريح ، كثيرة الرمال ، نُدفع فيها دفعاً لا قبل لنا بمقاومته ، فنلقى فيها الأهوال و الخطوب ....)

الإنسان مخلوق عجيب ، و أصفه ، و لكن بتردد كثير ، بأنه : كمّ سيكولوجي هائل ، ليس من اليسير تحديد أبعاد المسافات بين شطآنه .

إنّ غرور الإنسان لا يعدله شيء . فهو يظن بنفسه القدرة على تصريف حياته كما يحب و يهوى ، في حين تخضعه هذه الحياة لضروب من

العبث و ألوان من التحكم لا يكاد يعرف لها مصدراً ، أو يقدّر لها غاية .

وكل ذلك له برهان ، و عليه يقام الدليل . و لعل أقرب البراهين على ذلك ، هو إقدام الإنسان في معظم الأحيان على العبث بالحياة ، فلا يدعها مستقرّة . فلا تلبث أن تنكفيء عليه ، فإذا هي به وبمصيره عابثة .

-٤-

يحاول الإنسان أحياناً إثبات ذاته من خلال سلوكياته التي يأتيها في تناقضاته في دروب حياته .

الإنسان يستبطن ذاته أحياناً ، لذا تراه يتصرف على وفق ما توحيه إليه نفسه من خير أو شر .

نوازع الإنسان و دوافعه فطرية و مكتسبة : هذه حقيقة علمية لا يتجادل فيها متجادلون . لكن للبيئة في ذلك أثراً لا ينكره منكرون .

لهذا يولي النفسانيون اهتماماً بالغاً بمراحل الطفولة و الشباب ، ولا يكفون عن التأكيد على أثر التنشئة الأولى في الكيفية التي يكون عليها الشخص في قوادم حياته .

لذلك نجد بعض المربين ، ومنهم ، مثلاً ، جان جاك روسو ، الفرنسي المعروف ، قد أراد (لأميل) تربية ترسلية يتصرف فيها في طفولته على هواه ، ووفق ما يرغب هو وما يرضاه . لكن روسو ما عتم أن أنكر على نفسه هذا الترسل ، فصحح موقفه في كتابه : "*العقد الاجتماعي*" . إذ تراجع عن فكرة السماح للفرد بإطلاق دوافعه كما يرغب وكما يرى. إذ

لو تهيأ له هذا الاتجاه المتسم باللامبالاة ، لما أرعوى الإنسان عن إتيان أبشع المنكرات ، و ارتكاب أفظع الموبقات ؛ ولما بقي الإنسان إنساناً.

فالإنسان يستطيع حماية (الأنا) التي هي لحمه وسدى ونسيج شخصيته ، و إنقاذها من خلال عملية الاستدماج و الإندماج :
١- الاستدماج عن طريق تشرب روح المجتمع و أكبارها .
٢- و الإندماج بلحمة المجتمع ، ليدفع عن ذاته آفة الإغتراب النفسي الذي كثيراً ما يؤول إلى الإحباط المدمر تدميراً يضر بالذات وبالمجتمع .

(الأنا) التي يسعى الإنسان إلى تأكيدها في شخصيته ، أو تأكيد شخصيته من خلالها ، إنما هي الإحساس برابطة المعاناة السيكولوجية الفردية من خلال إضفاء أهمية خاصة في جوهرها للأحاسيس الذاتية .

إن شخصية الإنسان تقطن جسده البشري كله . وان شخصيته هذه إنما تكشف عن ذاتها من خلال خلجات الروح ، إن خيراً فخير وان شراً كانت فشر .

الأنا الإنسانية حقيقة سيكولوجية ، و روحية خاصة . وكل إنسان يحمل في نسيجه الجسدي و الروحي ، ويحوي في داخله إمكانيات متعددة. لهذا يستوجب الأمر الالتفات إلى كل فرد في المجتمع لتنمية هذه الإمكانيات ، ومن ثم توظيفها بما ينفع الفرد و المجتمع وفي هذا وقاية الفرد من أن تسوّل له نفسه ركوب متن الشطط بحق نفسه وبحق مجتمعه. كما أن في ذلك وقاية للمجتمع ، إذ أن بتحقق الإنسجام بين المطلبين يتحقق (المجتمع السليم) ، على حد تعبير اريك فروم ، النفساني الأمريكي المعروف ، إذ جعل ذلك عنواناً لكتابه : *المجتمع السليم* أو

المجتمع *المعافى* The Sane Society .

ففي كتابه : *سيكولوجيتك في الحياة* ، اجتهد أدلر ، في جعل المرء أو حمل الفرد ، على أن يتملى حياته ، و يأنس فيها نفاذ البصيرة : أي (*إمكان فهم المرء لنفسه فهماً جيداً*) على حد تعبير أنطوني ستور ، في كتابه : *فن العلاج النفسي* The Art of Psychotherapy .

(*إن الإنسان لن يصيبه التعب في البحث عن الخلود*) ، كما قال الدكتور ألكسيس كاريل ، الطبيب المعروف ، و الحائز على جائزة نوبل في الطب .

لكن بحث الإنسان عن الخلود تتباين فيه الأساليب التي يتدبرها الإنسان هذا . وربما يكون ذلك بل ربما كان ذلك التباين من دواعي اختلاف سلوكيات البشر ، وهم يجرون لاهثين ، مبهوري الأنفاس خلف ذلك (*الخلود*) المنشود الذي قصده كاريل .

وبعد ، فأحسب إن علم النفس بمختلف فروعه ما فتيء ينقب ، ويمحص ، و يبحث ، لعله يستكشف جديداً يضيفه إلى رصيد اكتشافاته حتى الآن ، يسلط من خلال ما عساه أن يبلغه من جديد ، ضوءاً يهتدي به إلى واقع دواخل الإنسان .

ويصدق على ذلك أكثر قول أنطوني ستور ، حيث يذكر:
(.... لكل منا أفكار و أحلام يقظة ، ومشاعر هائمة ، وهي كالفراشات ، تختفي إن لم يتم إصطيادها فوراً ، ويصدق هذا حتى على الأفكار الجديدة التي يبحث عنها المرء ، ولذلك فأنه من غير المستغرب أن يكون الأمر كذلك ، أو بالأخص مع الأفكار غير

المستحبة ، عندما يجد أنه أقل لطفاً مما كان يعتقد *) .

و إنه لما يسعدني أن أعرّب كتاب أدلر : سيكولوجيتك في الحياة : كيف تحياها ! ، و آمل أن يجد قراء العربية ما فيه من نفع ومتعه ، كما وجدتها .

ففي كتاب أدلر ، هذا يجد القاريء ما يلذ النفس و يثري العقل و يرضيه . فقد أودع في مؤلفه هذا خلاصة تجاربه الحياتية التي تأتت إليه من مصادر أبرزها : مخالطته الناس ، و أهمها من أركان عيادته النفسي التي كان يؤمها أشتات من الناس ، من مختلف الأعمار و الأجناس .

د. عبده علي الجسماني
جامعة صنعاء

---

* ترجمة د. لطفي فطيم . ص ٢٧ .

الفصل الأول

نحن ومعنى الحياة



يعيش بنو البشر في أطر من المعاني meanings وحدودها . ذلك أننا لا نتلقى تجاربنا من مجرد الظروف المحضة العابرة في حياتنا ، بل أننا دائماً نجرّب الظروف على محك أهميتها للناس . وأكثر من هذا وذاك ، حتى أن خبرتنا من ناحية مصدرها تستمد مقوماتها من الأغراض الإنسانية ومقاصدها . (فالخشب) مثلاً لا يعني إلا (الخشب بحكم منفعته وعلاقته بحياة الإنسان) ، و كذلك (الحجر) فأنه يلبث معناه (الحجر ما دام عاملاً ذا نفع في حياة البشر) . وإذا ما حاول امرؤ ما أن يقفز من فوق المعاني و يتخطاها ، ومن ثم يكرّس نفسه كلها للظروف وحدها وحسب، فأنه يكون بذلك قد حكم على نفسه بسوء التقدير و العزلة : فهو بفعله هذا يحكم على ذاته بالإنعزال عن سواه . ويترتب على هذا أن تكون نشاطاته و أفعاله و سلوكياته لا جدوى منها سواء بالنسبة إليه ذاتياً أو بالنسبة إلى الآخرين من غيره . وبعبارة أدق ، تكون كل تصرفاته جوفاء لا معنى لها ولا دلالة . ولهذا ، فليس في وسع أي امرىء أن يتجاوز المعنى أو يتجاهله . فأننا دائماً نجرّب الواقع [1] Reality من خلال ما نضفيه عليه من معنى ، فيكون ما يكون عليه ، لا لأنه قائم بذاته ، بل لأنه شيء موجود و قابل للتفسير و التبرير . فمن الطبيعي الإفتراض ، إذن ، أن هذا

المعنى هو دائماً ، و إلى حد ما ، لا ينتهي عند حد ولا هو بمكتمل ، ولا هو في ذات الوقت صحيح تماماً . فدنيا المعاني ، بهذا ، تكون دنيا الأغاليط .

فلو سألنا إنساناً : (ما معنى الحياة ؟) ، فهو قد لا يستطيع الإجابة على هذا السؤال . ذلك لأن أغلب الناس لا يكلفون أنفسهم عناء الإجابة على أسئلة كهذه ، و لا يريدون أن يشغلوا أنفسهم في الرد على مثل هذه التساؤلات أو حتى صياغتها . لا جدال في أن هذا السؤال قديم كقدم البشرية في تاريخها السحيق ، غير أننا كثيراً ما نسمع الشباب، والمسنين ، على حد سواء ، تنطلق حناجرهم بالسؤال الصارخ : (ما جدوى الحياة لنا ؟) ، (ما معنى الحياة إلينا ؟) . وبوسعنا القول ، في هذه الحال ، انهم إنما يطلقون مثل هذه الصيحات عندما يعانون في حياتهم إخفاقاً و دحوراً . وبقدر ما تصفو الحياة لهم و تكون أشرعتهم منشورة رخاءً ، وما ثمة من صعاب تعترضهم ، فلا تكون هناك حاجة تدعوهم إلى أن يضجوا بالشكوى على الشكل المذكور . إذ أن كل إنسان يثير سؤالاً ومن ثم يجيب عليه حسبما يتراءى له من خلال ما يقوم به من أعمال يرتئيها . ولو أنّ كلاً منا أصمّ عن كلماته المنطوقة أذنيه ، ولاحظ أعماله فقط ، لوجدناه يتفرد بما (تعنيه له الحياة) ، لرأينا جميع أوضاعه ، واتجاهاته ، و حركاته ، و تعابيره ، و أخلاقياته ، وطموحاته ، وعاداته ، وسماته الشخصية ، تتساوق و هذا المعنى المضمر في وجدانه . فهو يسلك و كأنه متكيء على تفسير معين خاص به في هذه الحياة : يتصرف و كأنه نسيج وحده . فكأن للحياة ، من وجهة نظره ، معنيين : معنى ما ينفرد به وحده ، ومعنى آخر ممنوح للحياة بأكملها .

هناك معان تضفى على الحياة بعدد ما هناك من كائنات بشرية [٢]، ولعل كل معنى ، كما ذكرنا من قبل ، ينطوي قليلاً أو كثيراً على خطأ

من نوع ما . فما من واحد يمتلك المعنى المطلق Absolute للحياة ، وباستطاعتنا القول بأن أي معنى يتم تداوله لا يمكن أن يكون مطلق الخطأ في تكوينه . وكل المعاني إنما هي متغيرات تنحصر بين هذين الطرفين المحددين . على أننا بمقدورنا أن نميز من بين هذه المتغيرات ، تلك التي تجيب على نحو أفضل وتلك التي لا تجيب إلا بشكل أخطل ؛ فبعضها خطؤها صغير ، وبعضها الآخر خطؤها كبير . وبذلك يمكننا أن نتوصل إلى تلك المعاني التي تتضمن الدلالات الصحيحة و سواها مما تفتقر إلى مثل تلك الدلالات . وعن هذا السبيل نحصل على (معنى للحياة) ينهض على أساس علمي ، وهذا من شأنه أن يوفر إجراءاً عاماً لمعان صائبة : معان تمكننا من مواجهة الواقع بقدر ما يهم النوع البشري و يؤثر فيه . وهنا يلزمنا أن نتذكر ثانية أن لفظة (صائب) أو صحيح إنها صائبة بالنسبة للجنس البشري ، و أنها صائبة و صحيحة حسب أغراض الكائنات البشرية و أهدافها . وما ثم حقيقة غير هذه ؛ وإذا وجدت حقيقة أخرى سواها ، فقد لا يكون أمرها مما يعنينا ؛ إذ قد لا نعرفها أو لا ندركها ؛ وربما لا تكون ذات معنى أصلاً.

لكل فرد من بني الإنسان التزامات ثلاثة رئيسية ، و أنه بهذه الالتزامات الثلاثة أو الروابط الأساسية يتوجب عليه الاهتمام . فهي تمثل له الواقع المعاش الذي يكتنفه من كل جانب . و إن جميع ضروب المشكلات Problems التي تواجهه إنما هي تسير في هذا الاتجاه الخاص بهذه الالتزامات و الروابط . وعلى الإنسان دائماً أن يستجيب إلى هذه المشكلات بالإيجاب لأنها دائبة في استثارة أسئلة من داخله ؛ و إن ضروب الإجابات التي يبديها هي التي تظهر لنا حقيقة مفهومه الفردي لمعنى الحياة و إدراكه لمتطلباتها منه . و أول هذه الالتزامات التي ينبغي أن نعيها هو أننا نحيا و نعيش على قشرة هذا الكوكب : الأرض ، و ليس لنا في حياتنا سواه نعيش فيه . وهذا يقتضينا أن نطبّع ذواتنا لمقتضيات مكاننا هذا

حسبما هو متاح فيه من إمكانات هيئت لنا . علينا أن نكيف أنفسنا و أن يكون نمونا العقلي و الجسدي مسايراً للمستلزمات السليمة لنضمن صيرورة العيش القويم حاضراً ومستقبلاً لنا و للجنس البشري قاطبة . وهذه ، لا شك ، إحدى المشكلات التي تبده كل إنسان لأن يجد لها جواباً؛ فما من فرد يقدر إن يشيح بوجهه عنها أو يتجاهلها . و أن أي سلوك نقوم به إنما يمثل حقيقة جوابنا لموقفنا وموقف الحياة الإنسانية كلها. ففي الأمر واقع من التحدي . فتصرفاتنا تكشف عما نعتقد انه ضروري ، وعما نحسبه مناسباً ، وما نظنه ممكناً ، وما نخاله مرغوباً . وهذا يؤول بنا إلى أنّ علينا أن نتكيف لحقيقة لا ينبغي لنا أن نغفلها إلا وهي أننا جزء من بني البشر الذين هم منا و نحن منهم ، فهم و نحن في الإنسانية سواء وكلنا نقطن وجه هذه الأرض .

ونحن إذا ما أولينا إهتماماً ، كما ينبغي ، بما علينا نحن جميعاً مما يتهددنا من مخاطر : منها – أمراض و آفات و كوارث – فإننا نجد أنفسنا وقد توحدت جهودنا من أجل العمل لخير النوع الإنساني كله و لصالحه العام ؛ فتكون نظرتنا أبعد و أعمالنا أصمد . فيكون موقفنا في هذه الحالة أشبه ما يكون بموقف من يجد نفسه حيال مسألة رياضية يقدح زناد فكره ليجد لها حلاً . إذ لا يجوز بحال من الأحوال أن يكون عملنا اعتباطياً بل يجدر أن يكون كل عمل نقوم به محسوباً ، ومتماسكاً .... بعيداً عن الحدس و الظن و التخمين العشوائي ، مسخرّين للحل السليم كل ما في حوزتنا من طاقات . وليكن في خلدنا و نصب أعيننا مع ذلك ، أن نجتهد بما أوتينا من قدرات أن نؤمّن الجواب الصحيح على وجه التقريب . علينا دائماً أن نسعى بكل قوانا لكي نعثر على الجواب السليم القابل للتطبيق والذي يجيب على حقيقة أننا جميعنا نشترك في العيش على سطح هذا الكوكب : الأرض ، بكل ما يجلبه لنا موقفنا فيها من منافع ، أو ما قد يسببه لنا من ما يجلبه لنا موقفنا فيها من منافع ، أو ما قد يسببه لنا من

مضار ليس لنا من دونها دافع .

وهنا نأتي إلى الالتزام الثاني من تلك الروابط القائمة بين بني الإنسان. فنحن لسنا وحدنا أعضاء في هذا الجنس البشري ، فهناك غيرنا كثيرون كائنون من حولنا ، وكلنا نعيش في رابطة وحدة إنسانية . وان على الفرد أن يتذكر دائماً أن عوامل الضعف الكامنة فيه تجعل من المتعذر عليه أن يحقق ما يرمي إليه من أهداف بمفرده و بمعزل عن سواه . و إن هو فكر في العيش منفرداً بعيداً عن غيره و حاول أن يحل ما يواجه من مشكلات بنفسه دونما عون من غيره فعليه أن يتوقع بأن مآله إلى الهلاك . فلا هو يستطيع أن يواصل جهوده وحده لتحقيق أهدافه في حياته ، ولن يقدر على أن يقدم ما ينفع الناس بعد . فهو إذن مرتبط بغيره بروابط نابعة من ضعفه ، و من عجزه ، ومن محدودية قابلياته . و لهذا فإن أعظم خطوة يتخذها لصالحه و لصالح الآخرين من بني الإنسان هي التلاحم معهم والتلاؤم و إياهم . وهذا ألترابط هو أسنى ما يجب التأكيد عليه و الإهتمام به . وإذا كنا ننشد البقاء فما علينا إلا أن نطوّع انفعالاتنا لتتناغم مع أعاظم توجهاتنا لحل مشكلاتنا بقصد بلوغ أهدافنا و تحقيق غاياتنا - وأقصد بذلك مواصلة حياتنا الشخصية ، وحياة بني جنسنا من البشر ، لنعيش و سوانا على سطح هذه الأرض متعاونين متكافلين .

و هناك الإرتباط الثالث الذي يشدنا جميعاً في إطاره . ذلك هو أننا موجودون لنعيش بجنسين - ذكور و إناث - و إن المحافظة على الحياتين : الفردية منها و الجمعية يجب أن تعير أقصى الاهتمام لهذه الحقيقة . فالمسألة المتعلقة بالحب و الزواج إلى هذا الرابط تنتمي . وما من أحد بوسعه التهرب من هذا الواقع الصراح . ويبقى هناك أن يتملى كل من الجنسين السبيل الذي يراه ملائماً له لبلوغ الحلول التي تيسر عليه ما يبدهه من مشكلات . فهذه الالتزامات الثلاثة أو الروابط الأساسية ، تجعلنا أمام ثلاث من

المسائل الأساسية أيضاً ، تلك هي : كيف نوفق إلى مهنة تمكننا من البقاء تحت وطأة القيود و الحدود المفروضة علينا من طبيعة الأرض التي عليها نعيش ؛ كيف نتوصل إلى موقع يسمح لنا بالتعاون مع أبناء جنسنا من البشر لكي يتم التعاون و تضافر الجهود لنجني ثمار هذا التعاون؛ ومن ثم كيف نكيف أنفسنا - سيكولوجياً - إلى حقيقة أننا بشر و أننا نتكون من جنسين - ذكور و إناث - ، و أنه علينا نحن الجنسين يتوقف أمر استمرار بقائنا و رفع مستوى حياتنا و توثيق عرى محبتنا .

علم النفس الفردي [٣] لم يواجه مشكلات تذكر في استبانة نوعية الحياة التي لا تنسلك تحت مظلة هذه العناصر الثلاثة - أعني بها المسائل : المهنية ، و الاجتماعية ، و الجنسية . ففي استجابة الفرد لهذه المشكلات الثلاثة يعكس دونما ريب أحاسيسه إزاء ما تعنيه إليه الحياة . هب أننا بصدد بحث حالة شخص لا يكون حب الحياة عنده مكتملاً ، و أنه لا يكترث كثيراً في سبيل تقدمه المهني و الوظيفي ، وان علاقاته بزملائه والمحيطين به لا تنمّ عن كبير اهتمام ، و انه منزو وقلما يقيم مع الآخرين صداقات ، أو انه يجد صعوبة في إقامة صداقات ، فماذا نستخلص من هذا كله ؟

فمن محدودية حياته ومن القيود التي ضربها طوقاً حول نفسه و حول مجمل حياته ، نستطيع أن نستخلص أنه يحس بأنه : كائن و أنه موجود حي لكنه شيء مشكل و خطير ، لا يقدّم لفرص الحياة إلا قليلاً ، لكنه جم الإنكسارات . وان مجال حياته الضيق وجل ما يصدر عنه من نشاطات يمكن أن تنحصر في أدنى حدّ يجمعه لسان حاله الذي أحسبه يقول فيه (الحياة تعني عندي - أن أحافظ على ذاتي من أي أذى طارىء و أن أتقوقع في حدود نفسي ، و أن أكون بمنأى عن كل شيء ، والجلوس

على التل أسلم) .

و لنفرض ، من الجهة الأخرى ، أننا بإزاء شخص حبه للحياة فيّاض و حياته كلها تعاون و وئام ، متعددة الجوانب ، ونشاطاته في حياته العملية مثمرة جداً ، و أنه كثير الأصدقاء و علاقاته بزملائه واسعة وكلها إيجابيات .

فماذا يعكس ذلك لنا ؟ .

عن إنسان كهذا نقول مستخلصين من سيرته الحياتية ، انه إنسان يشعر بأن الحياة إنما هي حياة إبداع و إبتكار وهكذا ينبغي أن تكون مهمة المرء فيها ، وعلى الفرد أن يقدّم فيها من الفرص الناجحة ، و أن لا يدع فيها مجالاً للإخفاقات التي إن توالت سيطرت عليه و حطّمت أشرعة إبحاره ، فينهار أمامها أو تجرفه تياراتها الهائجة . فشخص متفائل من هذا النوع من الناس يشق طريقة في عباب الحياة و لسان حاله يحدثه: (الحياة عندي تعني – الاهتمام بمن حولي من الناس ، وان أندمج بكل من هم في محيطي ، و أسهم بكل ما أوتيت من قابليات في بناء صرح النوع الإنساني).

فهنا في المثالين الآنفين يتجلى طرفان وهما على طرفي نقيض من بعضهما : طرف تتجلى فيه المقاييس العامة للأحكام الخاطئة (لمعنى الحياة)، و طرف تتمثل فيه الأحكام الصائبة (لمعنى الحياة) . وهنا تارة أخرى يجدر أن نذكر أن جميع الفاشلين في الحياة ، و العُصابيين من الناس المرضى بهذا المرض ، و الذهانيين منهم ، و المجرمين ، و المدمنين ، و الأطفال المشكلين ، و المنتحرين ، و المنحرفين و المنحرفات – هؤلاء جميعاً يعدون فاشلين ، وهم ، في الغالب ، يفشلون حقاً ، لأنهم يفتقرون إلى حسن المزاولة وحسن الرفقة إزاء الآخرين و لأنهم يتنكرون لروح الحياة

الاجتماعية والاهتمام بها . فـم ينظرون إلى الصداقـات وإلى الروابـط الاجتماعية وإلى تطوير مهن الحياة ، ينظرون إلى كـل ذلـك نظـرة إحجـام وتنكر ، فلا يقيمون وزناً إلى شيء أسمـه : التعـاون مـع الغـير . هدفهـم في النجاح يتمثل بهدف خيالي من صنع أوهامهم الشخصية المبنية على الترفع و التعالي الأجوف ، وأن مـآثرهم لا وجـود لهـا إلا في أخيلتهـم هـم. و إن المعنى الذي يصفـون بـه الحيـاة إنمـا هـو معنـى خـاص بهـم و مـن خلقهـم وحدهـم ، و لا أحـد سـواهم ، ينتفـع مـن خزعبـلات سـلوكهم ، و كـل أهدافهم تبقى قاصرة عليهـم دون غـيرهم . و المعنـى الخـاص Private لا قيمة له في التواصل في الحياة . فهو يبقى ، في واقع الحال ، قابعـاً في عقـل صاحبه . فالمعنى لا يكتسب فعاليته إلا في حالة النفع بـه ، و الانتفـاع منـه بـين سـائر النـاس . وكذلـك يصـدق الأمـر علـى الأهـداف و المقـاصد و الأعمال الأخرى ، إذ نتملى معناها و نراها بائنة في حال إنتفاع غيرنا بها. فنحن ندرك أن كل إنسان يسعى إلى أنه يكتسب أهمية و يحقق مكانـة لـه في الحياة ؛ لكن أولئك الذين يحسبون إن مكانتهم يمكن أن تتحقـق بمعـزل عن غيرهم أو على حساب سواهم إنما يرتكبون أفـدح الأخطـاء . فهـم لا شك مخطئون مالم يلتفتوا إلى حقيقة ان أهميتهم ومكانتهم إنما هي مرهونـة بمقدار إسهامهم في اعتبارات حياة الآخرين من غيرهم .

ولنضرب مثلاً على فآلة المعنى الخاص الغامض ، قصة تُحكى مؤداهـا أن امرأة تتزعم طائفة دينية صغيرة ، دعت أتباعهـا ذات يـوم إلى إجتمـاع عاجل ، و أخبرتهم أن نهاية العالم سيكون يـوم الأربعـاء القـادم . فمـا كـان مـن أتباعهـا أولئـك إلاّ أن استبدّ بهـم الذعـر ؛ فعمـدوا إلى بيـع ممتلكـاتهم؛ وزهـدوا بكـل عـرض في دنيـاهم ، و استسـلموا انتظـاراً ، وترقباً، وذعراً من داهية اليوم الموعود . غير أن يـوم الأربعـاء الموعـود قـد مرّ دونما حدث غريب . ويوم الخميس أرسلوا أحدهم ، وهم في أمـاكنهم قابعون يرتجفون ، أرسلوه ليستطلـع لهم جلية الموقف ، قائلين لـه : (أذهب

و أنظر و تبين ما هي المحنة التي نحن فيها . فنحن قد أُخبرنا بأن نهاية العالم واقعة يوم الأربعاء ، و أن التي أخبرتنا لها من علم الغيب ما لا نشك فيه غير أن يوم الأربعاء قد مضى وها هو العالم لا يزال مستمراً قائماً كما هو من حولنا) . فما كان منهم إلا أن ذهبوا إلى – نبيتهم – تلك وألحفوا في استجلاء ما أنبأتهم به ، فما كان من تلك (النبية) إلا أن قالت لهم : (ولكن أربعائي الذي أعنيه هو غير أربعائكم أنتم)! فهي ، إذن ، كان في عقلها معنى للإربعاء يختلف عن معناه لدى الآخرين : معنى خاص بها ! وهي إنما قالت ذلك لتتهرب فما كانت تتوقع أن تواجهه من تحدٍ سيأتيها من أتباعها الذين تضعضعت في نفوسهم مكانتها . لذا لا نرى للمعنى الغامض المبهم الخاص أدنى ثبات على محك الإختبار .

لذا ينبغي أن يكون العنصر الصحيح الكلي (لمعاني الحياة) متصفاً بالسعة و الإحاطة و الشمول و الإشتمال معاً – يخلق بها أن تكون تلك المعاني التي بوسع الآخرين المشاركة في معانيها ، و أن تكون مما يتقبله الآخرون بيسر ورضى على أنها صادقة . وخير حلٍ لمشكلات الحياة هو مما يسمح بفسحة لمكانة الآخرين ؛ وفي هذا السبيلٍ وعن طريق مسالكه نستبين أن تلك المشكلات قد تمت مواجهتها على نحو يتمثل في النجاح. فبذلك تتوفر أركان التكافل و الصفاء ، لتحل محل المنابذة و الجفاء .

وبذلك نجد حتى معنى العبقرية يجب أن يتم تحديد معناها ليس بأكثر من كونها موهبة نافعة ؛ لاشك في أنها يتجلى فيها السمو ، بيد أن سمو مكانتها يكمن في مقدار منفعتها : و انه فقط في حالة إسهام المرء في السعي لعون الآخرين نقول عنه بأنه عبقري فنصفه بهذه الصفة . فيكون المعنى المعبر عنه على هذه الشاكلة ، يكون دائماً موضع اعتبار ، و تكون سمته : (معنى الحياة – الإسهام في خير المجموع) لينعم المجتمع بالرخاء وقوة البناء . ونحن لا نتحدث هنا عن كوامن الدوافع ، ولا عن رواقد

النوايا و حسب ، وإنما نرمي أيضاً إلى أن نرى ظواهر الإنجازات وقد تحققت . وخير الناس من أردف بجهوده الذاتية ، جهود غيره بلوغاً لخير عميم .وعندئذٍ نتبين التلقائية التي تتبدى لنا معربة عن صدق نوازع صاحبها . وبهذا يتم تخطي ما قد ينشأ عن عوائق تحول دون الارتقاء النفسي و الإجتماعي و التغلب على صعاب الحياة أو تذليلها في الأقل .

ربما تكون هذه بالنسبة إلى كثير من الناس نقطة جديدة ، أو وجهة نظر تسمع لأول مرة ، و لعل بعضهم يشككون فيما إذا كان المعنى الذي نوليه للحياة لا يتمتع بأية نكهة طريفة تقدم شيئاً من الاهتمام لنزعة التكافل و التعاون في الحياة .وربما ، وهم في غمرة تساؤلهم هذا ، يثيرون سؤالاً محدداً مثل : (ولكن ماذا عن الفرد ؟) فإذا كان عليه دائماً أن يوفر جهوده لغيره ، ألا يمكن أن يؤول به ذلك إلى المعاناة الفردية أو الإخلال بفردانيته ؟ ألا يوجد من بيننا من يلزمهم الأمر أن يتعلموا باديء ذي بدء ، كيف يلتفتون أو كيف يحترسون من أجل رعاية مصالحهم ، أو ترسيخ مقومات شخصياتهم ؟ لا مشاحة في ذلك كله ، ولكن يخلق بنا أن ندرك أن فردية الفرد و شخصية المرء إنما تتعززان في خضم معترك الحياة ، و إن جوهر الإنسان ليستصفى على محك إسهامه الفعال وعلى ضوء ما يضفيه على معنى الحياة من رونق . فتحقيق الأهداف الإيجابية المرتجاة إنما هو لصالح الفرد و المجتمع و الحياة .

وثمة الماعة أخرى منها نستدل على أن المشاركة الوجدانية و العملية المتضافرة ، هي التي تجدد المعنى الصحيح للحياة و تمنحها صائب مراميها. فلنتأمل ما حولنا و لننظر ملياً إلى ما يحيط بنا ، فماذا نرى ؟ ألا يكفي أن نبصر بأم أعيننا أن هذا التراث الإنساني الجم إنما هو وليد جهادهم المشترك ، وثمرة إبداعهم المتكامل ؟ فهذا بحد ذاته يكوّن صُوى – علامات – باهرة على ما كان منهم من أعمال جبّارة تمثلت في الفنون، و

الفلسفات ، و العلوم ، ومختلف صـروح المعرفـة ، كلها تنتصـب شـواهد على نتائج أعمـال مشـتركة تصـب في مضمـار واحـد : هـو توطيـد رفـاه البشر. وهذه الجوانب الإيجابية ، على النقيض منها تتراءى مواقف أولئـك الذين لم يتيحوا شيئاً للحياة يذكر سوى انحسـار أفعـالهم باتجـاه دواخلهـم الذاتيـة وحسـب . فهـم ، لذلـك ، ليسـوا فقـط أمواتـاً في الحيـاة و بعـد الممات، بل أن حياتهم كلها خطل ولا غناء فيها في أي ضـرب يذكـر مـن ضروب العمل . انهم أناس عاشوا أو ما فتئوا يعيشـون علـى هـذه الأرض ولكن الأرض كأنها تخاطبهم فتقول : (لست بحاجة إليكم . وما مـن أحـد يكترث لوجودكم البطّال ، وما من جدوى فيكم ولا في أهدافكم . وليس لأحد حاجة بقيمكم التي تظهرون . فبعداً لكـم وتعسـاً) . ما أعجب أمـر الإنسان ! أنه ساذج و يسير ، و أنه وطيء وكبـير ؛ وان شـخصه لشـديد التعقيد .

يوجد هناك دائماً أناس يدركون واقع هـذه الحقيقـة ؛ أناس يعرفـون أن معنـى الحيـاة يكمـن في إبـداء الاهتمـام بمـا للآخريـن مـن حـق عليهـم وبإنشاء علائق المحبة و الوئام في هذا الإتجـاه . و أننـا لنجـد هـذا أيضـاً ممـا تدعو إليه جميـع الديانـات السـماوية باعتبـاره منقبـة إجتماعيـة و أخلاقيـة وإنسـانية مثلـى . و الإنسـانية بكـل توجهاتهـا و اتجاهاتهـا تصبـو إلى هـذا المنحى المرتجى.

وعلم النفسي الفردي ، هو الآخر ، بـدوره يرمـي إلى ذات الهـدف ممتطيـاً صهـوة الأسـاليب العلـميـة المنتقـاة ومتـوفـراً علـى استحـداث (التكنيك) – التقنية العلمية الرصينة – و انه (علم النفـس الفـردي) ، باعتقادي ، يخطو بخطى وطيدة في هذا المضمار . و لعل العلم ، وهو ينهـج منهج زيادة تطوير اهتمامات بني البشر بما يكفل الرخاء لأخوانهم من بـني البشر ، سيمكن من تسريع تقريب الهـدف المتوخى أفضل ممـا ينتهـج في

الأساليب الأخرى التي قد تسودها النزعات العشوائية .

ما دام المعنى الذي تكتسي به الحياة وعليها يُضفى ، يعمل وكأنه الملاك الحارس الموجه لجميع أعمالنا و أفعالنا ، فيكون من الواضح تماماً إذن ، بل و أنه لمن أهم الأمور ، أن ندرك كيف تتم صياغة هذه المعاني، و كيف تختلف فيما بينها و الواحد منها عن الآخر ، و كيف يمكن تصحيحها ووضعها على محجة المسلك السليم إذا هي إنحرفت عن مسارها القويم ، أوحينما تكاد تهوي في مهاوي الأخطاء القاتلة .وهذا لا غرو ، هو ميدان علم النفس و الحلبة التي يُجلّي بها ، ففي هذا المجال تتجلى خصائص علم النفس على نحو أفضل مما يقوم به الفسيولوجي أو (البيولوجي) – علوم الحياة . فعلم النفس مؤهل لغرض التعمق في أبعد أغوار النفس البشرية من حيث التكوين النفسي للإنسان و دوافعها ونوازعها و ميولها و اتجاهاتها .فنحن نلاحظ الطفل منذ لحظة إطلاله على عالمه الجديد يطفق يتلمس طريقه وسط حشد متشابك من مكونات محيطه ومعانيها .وهو يخطو ببطء يلائم نموه يستطيع في حدود الخامسة من العمر، أن يدرك بعض المفاهيم و المعاني المؤلمة لإدراكه لما يحدق به من معان للحياة أكتسبها إبّان خطوه صوب ما سيتعلمه من معان أخرى في قابل أيامه . وهذا لن يتأتى ألاّ بعد أن يهيء لنفسه نظاماً يستخلصه من تجاربه في كيفية إدراك المعاني إدراكاً حسياً أول الأمر ، ومن ثم يعلله تعليلاً عقلياً يحكمه المنطق المكتسب . ما إن يتحصن الفرد بالمعرفة ضد ما قد يبدهه من أخطاء بالغة الخطورة حتى نراه سرعان ما يتصدى لها بالتصويب المرتقب . ونادرة هي تلك الظروف التي يبادر فيها الفرد تلقائياً إلى إصلاح ما وقع منه من أغلاط لها صلة بما أضفاه من قبل على معنى الحياة، ومع التلقائية الذاتية هذه منه ، فكم هو سيفلح في هذا السبيل . و أيّاً كان الأمر ، فهو لن يقدم على تقويم سلوكيته لتنسجم مع الأعراف المرتضاة ، إلا إذا ألفى نفسه في مواجهة ضغط إجتماعي يلزمه بذلك

ويضطره إليه ؛ فإن هو ارعوى و إستجاب فقد أصاب ، وإن هو ركب رأسه فقد ضل و خاب . و الخير كل الخير يرتجى ممن يسمع الحق بأذن صحّاحه وليست مجّاجة ، و يعي بقلب إلى الهدى متحرّق غير متخرّق .

فلنا أن نمثل الآن بأمثلة بسيطة عما هناك من طرائق متباينة .... يمكن أن تعلل على ضوئها مواقف الطفولة التي تؤثر في نظرة المرء المستقبلة للحياة ومعناها . إذ من المرجح أن ما يخلفه الفرد خلفه من ذكريات كالحات كان خبرها إبان طفولته ، تستتلي ما يضادها من معان و تفسيرات . فرب امريء مرّ في طفولته بتجارب مريرة ، بيد أنه راح يستذكرها لا للنقمة ، وإنما يتسمتها منطلقاً لتصحيح أوضاع لا يرتضيها تتكرر. فنجده يتحسس ونفسه تحدثه : (يجب أن نزيل و نبعد تلك الأيام البائسة ، و لنؤمن لأطفالنا أفضل الظروف) . ولعلنا نلقى شخصاً ثانياً يقول : (عدل الحياة مبتسر . فبعض يظفرون بخيرها وخير ما فيها . وإذا كانت الدنيا تعاملني على هذه الشاكلة فَلِمَ يتوجب عليّ أن أعاملها بشكل أفضل ؟) ! و لعل بعض الآباء يحدثون أبناءهم بقولهم : (كنت قد قاسيت أيام طفولتي ما قاسيت . ولكني كلٍ عقبة واجهتها تعديت . فَلِمَ لا تفعلون كما فعلت ؟) وربما نسمع رجلاً ثالثاً يقول كاشفاً عن حس دفين : (كل شيء يجب أن يغتفر لي لقاء ما قاسيت من طفولة تاعسة) . ففي الأمثلة المضروبة هنا نتبين هذا الاختلاف بين الأشخاص الثلاثة ؛ وحسبهم في الخبرة هذا التفاوت بينهم . فكل منهم قد أفصح عن دفائن ماضيه . بيد أن كل واحد منهم أعرب عما عاناه على نحو جسّده معنى يختص به وحده . وهنا في هذه المفازة يشق علم النفس الفردي طريقه خلال النظرية الحتمية [٤] the theory of determinism . فما من خبرة قائمة بذاتها يمكن أن نعدها وحدها هي سبب النجاح أو الفشل . فنحن لا نعاني من صدمة shock خبراتنا وتجاربنا وهو ما يسمى : صدمة الولادة trauma ؛ وإنما نحن نجعل من تجاربنا ما يتواءم وأغراضنا .

إننا موجهون توجيهاً ذاتياً self - determined بشـكل مقـرر لنـا بفعـل تجاربنا وماضي خبراتنا وبحكم ما نسبغه عليهـا مـن معـان حـاضرة . ولعـل الأمر لا يخلو دائماً من خطأ كائن هناك إذا ما نحن حسبنا خبرةً بعينها هـي أساس حياتنا المقبلة . إذ أن المعاني ليست مقررة تقريراً حتميـاً بـالمواقف ، بل نحن الذين نوجه أنفسنا ونقرر لها التصرف والسلوك بفعل ما نتبناه مـن معان نضفيها على مواقف الحياة .

غير أن ما سـبق ذكـره لا ينفـي بحـال أن مواقـف معينـة أيـام بواكـير الطفولة تترتب عليها فيما بعد أخطاء فادحة . ولا جدال في انه لمن أولئـك الأطفال الذين كابدوا مرّ الحياة ومواقفها ، تتأتى أجسم ضروب الإخفـاق وأقصاها . ولنأخذ بـاديء ذي بـدء ، وعلـى سـبيل المثـال ، الأطفـال مـن ذوي العاهات العضوية . فهؤلاء الأطفـال ، مـن الصعوبـة بمكـان إقنـاعهم بأنّ معنى الحياة رائق . فهم يحسون في أعماق نفوسهم ما هو بـادٍ لهـم مـن عاهات يرونها في ذواتهم مثلبـة تشـعرهم بـالنقص في قرارتهـم وبالدونيـة عمن سواهم . فهذه الأحاسيس تستقر في أبعد قاع من عقولهـم ونفوسـهم ما لم يقيّض لهم ممن حولهم من يؤتـى مـنٍ الحكمـة والصـبر لصـرف حبيـس معاناتهم واجتذاب انتبـاهم شـيئاً فشـيئاً بعيـداً عـن الـتركيز علـى نواقـص أبدانهم ، مما يضطرهم إلى اجـترار سـوء طـالعهم . ورغـم ذلـك ، ومهمـا إجتهد المجتهدون ، فإن ذوي العاهات يواجهـون ظروفـاً يمكـن أن تحملهـم على أن ينكفئوا على أنفسهم ، ويفقدوا الأمل في النهوض بـأي دور نـافع في الحياة العامة ، ناظرين إلى ذواتهم من دواخلهـا معتـبرين الدنيـا لا تريـد لهم إلاّ الإذلال Humiliated .

كنت ، كما أعتقد ، اول من وصف المصـاعب الـتي تعـترض الطفـل المصاب بعاهات عضوية وتشـوهات خَلْقيـة ، أو الطفـل المُبتلـى بـإفرازات غديّـة –نسبة إلى غدة – غير طبيعية . سار هذا الفرع مـن العلـم إلى أمـام

بخطوات فساح خارقة ، لكنه لم يسرْ على النحو الـذي تمنيتـه لـه أن يسـير عليه ولا وفق الأسس الـتي إرتجيتهـا لـه . فمنـذ الإبتـداء كنـت أسـعى إلى تحري منهج يعين على التغلب على الصعـائب وتذليـل مـا قـد يعـترض مـن مشكلات ، وما كـان وكـدي إمتهـاد أرضيـة مـن اجـل أن نطّـرح عليهـا مسـؤولية الفشـل الناشـيء عـن الوراثـة والظـروف الفيزيقيـة الجسـمية والطبيعيـة .

إذ ما من نقص عضوي يضطر – صاحبة – إلى ، أو يتحتـم نتيجـة له خطأ في أسلوب الحياة ونظامها . فلا نجد ، مثلاً طفلين يتساويان في كـل شيء ، أو يتأثران بنفسٍ المستوى جراء ما يجري فيهما الخلل في غددهمـا . وما أكثر ما نرى أطفالاً يتخطون صعوبـات كهـذه ، بـل انهـم، اكـثر مـن ذلك ، يكشفون، عن ملكات غير اعتيادية تمكنهم من الإتيان بكل ما هـو نافع في الحياة. ومن هذه المثابة فإن علـم النفـس الفـردي لا ينصّـب مـن نفسـه داعيـة لنظـم Schemes الاصطفـاء الجيـني Eugenic. فكثـير مـن الرجال اللامعين ، الرجال الذين أسهموا في الحضارة بخدمات جلـيّ ، هـم أناس كانوا يعانون من نقائصٍ بدنية وعاهات عضوية ؛ فكانت صحتهم في الغالب معتلة ، وكانوا أحياناً يموتون مبكرين وانه لمن اولئك الرجال الذين كانوا يكابدون عللاً ، وكانوا يكافحون للتغلب عليها وعلى ظروفها ، قد جاءت أسنى الإسهامات التي بدّدت إشعاعاتها حوالك الظلمات . إذ شـدّ كفاحهم من عزائمهم وشحذ إرادتهم فمضوا قدمـاً يقدّمـون ويشـيدون . فمن مجرد ملاحظة الجسم ، لا نستطيع الحكم مـا إذا كـان العقـل سـالماً أم فاسـداً . ولـذا نتبـين أن أغلـب الأطفـال مـن ذوي العاهـات والتشـوهات والإضطرابـات الغديّـة ، لم يتلقـوا القـدر المُقتضـى مـن العنايـة والتدريـب والتمرين للتغلب على معوقاتهم تلـك ؛ ولهـذا السـبب بـالذات نجـد هـذا العدد الهائل من أنواع الفشل متفشياً بين اولئك الأطفال الذين كانت أولى سني حياتهم الغضة مثقلة بفوادح الأعضاء المشوهة عندهم .

والنمط الثاني من أنماط المواقف التي ترهق كاهل معنى الحياة هو الطفل المدلل. فالطفل يشبّ وقد تعود أن تنفّذ رغباته وكأنها اكتسبت صفة القانون . فهو يُمنح أهمية المكانة من غير إستحقاق ولاجدارة ، حتى يستقرّ في ذهنه أن له في هذا حقاً مكتسباً . فينهج هذا النهج الشعوري ، ولا يدري ماذا يريد ، ولكن لا يريد أن يعطي . ومَن أفرط في إدّخار جهوده لا يلبث حتى يُبتلى بالخمول . غير أنه ما أن يجد نفسه مهملاً وليس بمحط الأنظار ، وما أن تجبهه ظروف لم يدرب للثبات بوجه زخم أمواجها العاتية ، حتى يصحو فيلقى ذاته في لجة الضياع ؛ عند ذلك يدرك أن دنياه قد تخلت عنه وخذلته . ففي غمرة دلاله وتدليله يكون قد خسر قيمة إستقلاله الذاتي الذي لم يتعوده ، ولم يدرب أو يتدرب على كيفية الوقوف بنفسه على قدميه . فهو ، حينئذٍ ، يواجه العالم من حوله بعقل سادر ، وكأنه يقرأ معاني الحياة بلسان أَلْكَن. أما كيف يجب أن يواجه مخاطر مهام الحياة ، فإن عليه أن يتخلى عن سوابق نزعاته الموهومة، عندئذ ، وعندئذ فقط ، سيتحسن موقفه : أي بعد أن ينضو عنه رداء الكسل.

هؤلاء الأطفال المدللون هم أكثر الناس خطراً في المجتمع . فهم يتصرفون، على وفق هواهم . ولعل تصرفاتهم تتراءى لنا بصورة متباينة . فمنهم من يظهر الوداعة ، ومنهم من يتودد إلى الناس ليبدو أنه محبوب وأنه مرغوب ؛ ومنهم من يبدي التمرد ويتشبث بالعناد ؛ ومن بينهم من يتلبب بعادات هجينة حينما يعتقد بأنه قد أسقط في يده . و المدللون بوجه عام يعدون المجتمع عدواً يناصبهم العداء ، لذلك فهم يقتنصون الفرص المواتيات للإنقضاض عليه بغية الانتقام . و أيما تصدٍ ينهجه المجتمع لحماية ذاته من شر عدوانهم ، يتذرعون بواهي الذرائع بأنهم هم شخصياً المستهدفون دون سواهم . لهذا فإن العقاب في الغالب لا يكون فعالاً في نفوس هؤلاء ، بل هم سرعان ما يتعللون بالقول القائل : (الكل يحبكون

الحبائل ضدي) . و أيّا كان النهج الذي ينهجه الطفل الفاسدة تنشئته ، فإنه في واقع الحال يقترف نفس الخطأ ، و يجترح ذات الغلط . فالواحد منهم يكون تصرف وقد إنْتَفَخَ سَحْرُه – رئته – في مجاوزة القَدَرِ المحدد .

وثالثة الأثافي من تلك المواقف التي يمكن أن تتخذ فيها الأخطاء سبيلها ، هو الموقف الذي يجد فيه الطفل نفسه مهملاً وما من أحد يأبه به. فطفل كهذا ينشأ وهو لا يعرف معنى المحبة ولا يدرك ما معنى التعاون والتضافر : فهو لذلك يصوغ للحياة معنى لا يتضمن هذه القوى المحببة المؤثرة في سلوك المرء . و ينبغي ألا يغرب عن الذهن أنه عندما يواجه صعوبات في الحياة تذكر ، فسيضخمها أكثر مما تستحق ، و أنه في ذات الوقت يحط من قدر نفسه و يقلل العزيمة لأنه مهزوم من داخله أولاً ، ولأنه لا يعرف للتعاون مع غيره معنى . ذلك لأنه منذ البداية إنغرس في ثنايا ذاته صدود المجتمع عنه و بروده إزاءه ، لذا استقرّ في ذهنه أنه – المجتمع ، هو دائماً هكذا . فيغيب عن عقله أنه بوسعه أن يكسب العطف و التعاطف و الإحترام بما يمكنه أن يعطي من جهود مثمرة. فلا يعرف أن المكافأة واجبة في الطبيعة . فيشب مثل هذا الطفل وكله شك في كل ما ينساب من حواليه في مسارب الحياة . وفي هذا تكمن الحكمة من إيلاء الطفل حناناً مشفوعاً بتربية ، وهذا يمكن أن توفره له أم حصيفة أو من يقوم مقامها بروح إنسانية شفافة لطيفة ، إذ أن من شأن ذلك أن يجعل مشاعره مفعمة بصدق الثقة بالآخرين والإطمئنان إليهم . فمن حجر الأم تبدأ الثقة ومن ثم تتسع دوائرها شيئاً فشيئاً حتى تحتوي المحيط القريب من الطفل و البعيد في آفاقه . لكل واحد منا – نحن البشر – المقدرة على توطيد علائق الإهتمام بسوانا ، هذه حقيقة لا غبار عليها . بيد أن هذه القدرة تستوجب ، في الأسرة و المجتمع ، تدريباً و تهذيباً

لتتطـور و تنمـو كمـا ينبغـي ، و إلاّ فـإن تطورهـا سـيتعثر و نتيجـة صاحبهـا ، الإحبـاط و مآلـه التخبـط و الإشـتطاط .

إذا حصـل أن وجدنـا نمطاً من الأطفـال مـن النـوع الـذي وصفنـا لتونـا: أي إذا كان قد أُهمل ، أو عانى من كراهية ، أو واجه إعراضاً من ذويه ، فسينشأ وهو أعمى حسب المعنى المجازي نحو كل ما يعنيـه التعـاون أو الإنضمام إلى باحة أبنـاء مجتمعـه . فيضـرب علـى نفسـه العزلـة ، وهـو جاهل بكل قواعـد الإتصـال السـيكولوجي الـذي مـن شـأنه توثيـق عـرى الروابط الإنسانية . و أن مـن ينشـأ علـى هـذه السـجية ، كمـا رأينـا ، لا يكون مصيره إلا إلى الهلاك . فيسلك على غير هدى ، و يتصرف من دون بصيرة ولا رؤى . وأنه لمن المحزن حقاً أن نجد في عالمنـا المتمـدن كثيراً مـن حالات الإخفـاق و الفشـل ، ومصـدر ذلـك كلـه ، هـم أولئـك الأطفـال اليتـامى المهملـون ، أو المشـردون ، يضـاف إليهـم الأطفـال المهملـون أو المنبوذون . فهؤلاء كلهم ينشأون وهم لا يفقهون للتكاتف معنى ؛ فكيـف نتوقع منهم أن يفهموا : (من لم يستظهر بالإخوان ، عضّه نـاب الزمـان) – مثل عربي يؤدي المعنى الذي ذكره المؤلف –.

هذه المواقف الثلاثـة – أعـني بهـا : الأعضـاء المشـوهة النـاجم عنهـا ألعاهات ، و التدليل ، و الإهمال – هي أعظم تحدٍ يواجه ما يـراد للحيـاة من معنى . و إن الأطفال المتمخضة عنهم مثل هذه المواقف يحتاجون دائماً تقريبـاً عونـاً يسـدى إليهـم ليعيـدوا النظـر في موقفهـم ممـا يعـترضهم مـن مشكلات . فهم يجب أن يتلقـوا مسـاعدة تـأخذ بـأيديهم إلى فهـم أفضـل لمعنى الحياة من حيث جوهره . وإذا نحن وجهنا اهتمامنا الصادق نحو هـذه الفئة من الأطفال ، ووطّنا النفس بهذا الاتجاه – فسنتمكن في المآل من أن نرى جوهر معانيهم بادياً في كل مكان وفي كل ما يفعلـون . ونحـن نعـرف مـن التحليـل النفسـي بـأن الأحـلام Dreams و التداعيـات

و : Associations يمكـن أن تكـون نافعـة ولها في هـذا المجـال جدواهـا : و الشخصية هي ذاتها في حالتي الحياة الحالمـة و الحيـاة الواعيـة ، غـير أنـه في حالة الأحـلام تقـل المتطلبـات والضغـوط الإجتماعيـة إلى أدنـى حـد و أن الشـخصية عنـد ذاك تتكشـف علـى حقيقتهـا عاريـة مـن أي تحـرزات وتكتمات . وبهذا وعن هذا الطريق يتأتى أرقى ما يمكـن أن يسبغه الفـرد على معنى الحياة ومنبع ذلك عنده هي الذكريـات لديـه . وكـل ذاكـرة ، مهما كانت فكرته عنها متدنية ومهمـا ظنهـا سـاذجة ، تمثـل بالنسـبة أليـه شيئاً يستحق التذكر memorable . فيكون يستحق التذكر لتأثيره علـى الحياة كما يصورها هو كما يرسم لها من صور في خلايا ذاكرتـه ، فكأنهـا تحـاوره : (هـذا مـا يجـب أن تتوقعـه) ، أو : (هـذا مـا يجـب عليـك أن تتجنـب) ، أو : (هـذه هـي الحيـاة !) . و المهـم هنـا ذكـره هـو ليسـت التجربة الذاتية مجردة عن كل تأثير و اعتبار ، و إنما الأهم من هذا كله هو ما تحفره التجربة في الذاكرة مـن أخـاديد و مـا تتركـه مـن آثـار فتتبـلّر – مكونة بلورات – تقرأ في صفحاتها معاني الحياة . فكل ذاكرة هي تذكـرة Memento ومذكّرة * .

ذكريات الطفولة تستمد أهميتها مـن حقيقـة بقائهـا في ذهـن الطفـل حية و استمرارها هكذا ولا سيما أنها تعكس فيما بعد منحى الطفـل نحـو الحياة بعد أن يتخطى عتبات الطفولة ، ومن سابق ذكرياته يستقي الطفـل اتجاهاته المتبلـورة إزاء الحيـاة ومعناهـا . ولسـببين اثنـين نتبـين مـا للذاكـرة المبكرة من مكانة مهمة في دنيا الفرد . أول هذين السببين ، هو أن التقدير الأساسي الذي يكونه الفرد باديء ذي بدء عن نفسه وعن موقعه في عينـه وفي أعين غيره إنما يكون متضمناً في بـازغ ذكرياتـه ، ففيهـا رواقـد إجمـالي مظاهره ، وفيها أول رمز Symbol كوّنه عن صورة ذاتـه ناقصـاً كـان أم تاماً ، وفيها تثوي أولى المطالب التي أمليـت عليـه . وثـاني هذيـن السـببين هو، إن الذكريـات المبكـرة تمثـل الانطلاقـات الذاتيـة الأولـى ، وهـي في

الوقت عينه تعكس ما كوّنه لنفسه من سيرورة ذاتية أرادها لشخصيته . لذلك فإننا في الغالب نجد في صفحات تلك الذكريات المبكرة منقوشة ضروباً من التناقضات القائمة بين مواقف من الضعف وقلة الكفاية (الكفاءة) التي يحسها في داخله ، وبين هدف من القوة يطلبه حثيثاً و أمان يتوق إليه ويعتبره مطلبه الأمثل . ومن وجهة النظر السيكولوجية فالأمر سيان : سواء عدّ المرء الذاكرة حدثاً و مهمته الأولى أم حسبها مخزن الأحداث العابرات وما كان حقاً يتذكره ، يلبث الأمر المهم هو أن أولى الذكريات هي المؤثرات في ما يتوخى الفرد من توجهات . فالذواكر (جمع ذاكرة) إنما هي مهمة فقط لما تكون عليه ولما يمكن أن تؤّل به ؛ على ضوء ما يتم به تفسيرها و لتأثيرها على حاضر حياة - الفرد - ومستقبله . ففي بواكير الذاكرة تقبع ناشبة خبرات منها ما يرمض ويوجع ، ومنها ما يحفز و يولع .

فما أكثر الأمثلة التي توردها أدبيات علم النفس و التحليل النفسي عن غرائب الذاكرة في بواكير خبراتها ! فهذه فتاة ، مثلاً ، تسرد في سيرتها الذاتية Autobiography كيف اندلق فنجان القهوة الساخن وهي لّما تزل بعد ، طفلّة ، وكانت أنسيت الحادث لكنه عاودها لاشعورياً فجعلها تنظر إلى العالم من حولها و كأنه لهيب يكاد يحرقها . فلا عجب إذا ما رأيناها فيما بعد تعنف كل الناس و تلعنهم و تصب عليهم جام غضبها لأنهم لم يولوها من الحيطة و الحماية ما يكفي للحيلولة دون احتراقها بفنجان القهوة الساخن ذاك . وصورة أخرى تعرض لنا عن العالم وماذا تعني الحياة كما تعكسها ذاكرة الطفولة الأولى : فهذا طالب جامعي يذكر: (أتذكر أنني كنت قد سقطت من عربة صغيرة خاصة بالأطفال ، يوم كنت في السنة الثالثة من عمري) . ومضت الحادثة وأصبحت طي النسيان . لكنها ما لبثت أن راحت تعاود على صورة حلم يتكرر : (رأيتني في عالم و كأنه على وشك نهايته ورأيت و كأنني أستيقظت

فشاهدت السماء لاحت حمراء ملتهبة ناراً . رأيت و كأنّ النجوم تسّاقط وكنا على وشك الإصطدام بكوكب آخر ولكني من شدة فزعي قبيل الاصطدام إستيقظت . فهذا الطالب ، وقد سئل عما إذا كان ثمة شيء يخيفه ، أجاب : (إني أخاف من أنني قد لا أحقق نجاحاً في الحياة). ومن هذا يتضح جلياً أن ذاكرته الأولى وما أختزنته من ذكريات ، و أن حلمه المتكرر ذاك ، كلها كانت تتفاعل وتعمل على تثبيط همته والحد من عزيمته ، فتؤكد له وتدخل في روعه الخوف من الفشل وكوارثه . فيبقى في قرارة نفسه مرتعباً وكأنه يكاد يتخطفه الطير من شدة تخوفه ! .

وهذا صبي في الثانية عشرة من العمر ، جيء به إلى العيادة النفسية بسبب التبوّل الليلي (Enuresis) – تدفق البول وسلسة بشكل لا إرادي – وبسبب مشاكساته المستمرة مع أمه ، و حين سئل عن أسباب ذلك كله ، ذكر عن أولى ذكرياته الطفولية يقول : (ظنت أمي أني ضللت طريقي وأني ضعت ، فراحت تهرول في الأزقة وفي الشوارع تنادي عليّ وهي مذعورة . وكنت إبان ذاك مختبئاً في إحدى خزانات الملابس داخل الدار) . فماذا نستخلص من كلام الصبي هذا ؟ ففي ذاكرته هذه نقدر أن نقرأ التقدير الآتي : (المياه تعني – لكي أكون في مركز الإنتباه عليّ أن أكون مصدر إزعاج . و الطريق إلى ضمان الأمان ينبغي أن يكون عبر الواقعية و الخداع . أنا موضع عناية ، ولكن باستطاعتي تضليل الآخرين) . وكان بواله ، أيضاً ، وسيلة موجهة بعناية منه لتجعله في بؤرة القلق عليه والإنتباه له ، وان والدته قد أكدت قوله الآتي بشأن فهمه لمعنى الحياة ، وذلك عن طريق إظهار قلقها عليه وعصبيتها نحوه . وعلى غرار ما ذكرنا من أمثلة سابقة ، فإن هذا الصبي كان قد كوّن مبكراً انطباعات اختزنها في ثنايا ذاته مفادها ، من وجهة نظره ، إن الحياة ملأى بالمخاطر ، فأنتهي إلى نتيجة من صنع عقله بأنه يكون في مأمن فقط عندما يجعل الآخرين وجلين عليه ، وقلقين بالنيابة

عنه. بهذه الطريقة وحسب ، قدّر أنه يستطيع أن يؤكد لذاته بأن الآخرين موجودون هناك لحمايته إذا هو أراد ومتى أراد .

وهذه أول ذاكرة لامرأة في عامها الخامس و الثلاثين من عمرها ، تقول : (أتذكر عندما كنت في السنة الثالثة من عمري هبطت سلم السرداب وخلال تلمسي درجات السلم في العتمة المظلمة لحق بي أبن عم لي وهو يكبرني في العمر قليلاً ، إذ فتح الباب و أسرع في أثري . شعرت في حينها أني كنت جد خائفة بل ذعرت غاية الذعر). بدا لي من دلائل هذه الذاكرة أن تلك المرأة لم تكن معتادة على اللعب مع غيرها من الأطفال وإنها كانت شديدة التوجس من أطفال الجنس الآخر .وقد حدستُ عند مقابلتها بأنها كانت الطفلة الوحيدة لأسرتها ، أتضح لي أن حدسي كان صحيحاً وبرهنت على صدق ما ذهبت إليه ، وكانت لا تزال ، وهي في الخامسة و الثلاثين من عمرها ، لم تتزوج بعد .

ولعل أرقى ضروب التطور النفسي المتمثل في الإحساس الإجتماعي ينكشف لنا في المثال التالي : (أتذكر أن أمي سمحت لي أن أدفع أختي الوليدة في عربتها المخصصة للأطفال الرضّع . وهذا مما جعلني أشارك في رعايتها) . هذا ما ذكرته فتاة صغيرة . ففي المثال نلحظ علامات تتبدى لنا وتفصح عن ذاتها لدى الفرد انه يرتاح كثيراً عندما يكون مع من هم أضعف منه ، و انه ، ربما ، يشعر بالراحة إزاء الأم لأنه لا يهتم إذا ما أظهر الاعتماد عليها . ولذلك يكون من الأفضل ، عند ولادة طفل جديد، أن يطلب عون أخوته الأكبر في الاهتمام به . لأن مثل هذا التصرف يشعر الأخ الأكبر أو الأخت الكبرى بأنه يعوّل عليه أو عليها ويحمله على الاعتقاد بأن مشاركته في المسؤولية معناها عدم التقليل من وضعه في الأسرة و انه موضع اعتبار من جانب الكبار .

غير أن الرغبة في صحبة الآخرين ليست دائماً دلالة على حسن الإهتمام بالناس المحيطين . فهاهنا طفلة أجابت عندما سئلت عن أول ذكرى لها : (كنت ألعب مع أختي الكبرى و بنتين أخريين صديقتين) . فإننا ندرك بسهولة أننا بإزاء طفلة تعودت أن تكون إجتماعية ؛ لكننا سرعان ما ندرك حين نسمعها تقول : (لكن أخشى ما أخشاه حينما أترك وحيدة فأكون وحدي). فنرى هنا دلائل تشير إلى عدم التكيف لروح الاعتماد على النفس .

ما أن نرى المعنى المسبغ على الحياة وقد لمسناه وفهمناه ، حتى نظفر بمفتاح لفهم الشخصية كلها . يذكر أحياناً إن شخصية المرء لا تتغير ، غير أن هذا الموقف يتمسك به فقط أولئك الذين لم يضعوا أيديهم على المفتاح الصحيح للظرف المحدق بالشخصية . إذ ما من بحث ، كما سبق لنا أن رأينا ، يتأتى سليماً قوياً ولا يكتب له النجاح ، ما لم نتبين جذور الخطأ من أصلها ؛ وان الاحتمال السليم للتطوير إنما يكمن فقط في أصول أن نقول للفرد ، بعد أن نكون على حب الخير عودناه ، دونك ما جنيته فأحس وذق . ففي التدريب على حب التعاون و التحابب حصانة للفرد ضد الميول العصابية Neurotic . وانه لمن أسمى الأهميات تعويد الأطفال و تشجيعهم على أن يشقوا طريقهم بأنفسهم وان يندمجوا بأقرانهم ولداتهم ، و أن ينظموا ما يلائمهم من العاب وان ينجزوا ما يوكل إليهم من مهمات . فالتعويق للطفل ، تخويفه ، أو اعماله ، حزن له ومكمدة . وفي التدليل إضرار به وبحياته المقبلة ، وهو ، بعد ، مفسدة له أي مفسدة . وفي انتهاج السبيل الوسط في تنشئته تستقر المحمدة .

فلا ينبغي لنا أن نلوم الطفل على ما يبدو منه من نقص ومن سلوك لا نرضاه ، ونحن لم نكن قد عودناه كيف يجانب ما لا نرتضيه منه ولا سبق لنا أن عودناه . كل شيء في هذه الحياة يقتضي تدريباً ، وكل مشكلة

تستدعي قدرة مناسبة لمواجهة حلها ، وكل مهمة تستلزم السيطرة عليها ضمن نطاق مجتمعنا الإنساني وبصورة تفضي إلى الرفع من شأن الصالح البشري ونفعنا العام المشترك . وإنه فقط الفرد الواعي لا السامد ، هو الذي يفهم أن الحياة تعني تكافلاً وتضامناً ، وعندئذٍ يتمكن من أن يواجه مصاعبه بشجاعة وانه تتسنى له فرصة طيبة للنجاح .وان من لم يصلحه الطالي يصلحه الكاوي.

إذا ما لمح الآباء و المعلمون و النفسانيون ما ثمة من أخطاء ، وعرفوها ، و أدركوا أين مكمن الأغلاط التي يمكن أن تنسب إلى معنى الحياة ، وإذا هم أنفسهم تحرزوا من الهُوي في مهاوي تلك الأخطاء ، فإننا لعلى يقين من أن الأطفال الناشئين ممن تنقصهم روح الإهتمام بالصالح الاجتماعي و يفتقرون إلى روح المبادرة النادرة سيأتي عليهم وقت تُستنبت في مغارس نفوسهم أفضل مشاعر الإحساس و تستنهض فيه قابليتهم ليوظفوها في إرتقاء فرص الحياة . وحينما تواجههم مشكلات ، فإنهم لن يضنوا بطاقاتهم ، ولن ينتظروا إلى من يأخذ بناصرهم إلى أيسر السبل مخرجاً ، و أنهم لن يولوا الأدبار أو يلقوا بأعبائهم على عاتقٍ غيرهمٍ، وأنهم لن يلتمسوا استلطافاً رقيقاً ليناً ، أو يتحروا استعطافاً خاصاً ، و انهم لن يستكينوا للذل ولن يحسوه ، وفي المآل فلا يلجأون إلى الانتقام ومقارفة الأذى ، و بالتالي لا يسألون ، ما جدوى الحياة وما نفعها، وما عساي أن أنال منها أو ما سأحظى به فيها ؟) بل أنهم سيقولون ، (علينا أن نشق طريقنا عبر عبابها . أنه لأمر يهمنا وان هذا هو قدرنا وان فينا من القوة ولدينا من القدرة ما يمكّننا من مواجهتها .إننا أسياد أنفسنا وان طاقاتنا قائمة فينا . فإن كان هناك جديد يستدعي التحديث والاستحداث ، وان كان ثمة ما يستلزم الاصلاح و الاستحثاث ، فليس لذلك كله سوانا ، فنحن به أجدر و إننا عليه أقدر) . فإذا واجهنا – نحن بني البشر – متطلبات الحياة بمثل هذا العزم الوطيد ، فإننا ، لا محال ،

سنرفع رايات العلى باليمين ، بعد أن توخينا ترويض عصيها بعرق الجبين .

هوامش الفصل الأول

١- هناك فرق في هذا السياق بين الواقع Reality و الواقعية Realism . المعنى الأول يراد به أن الظواهر الخارجية هي ظواهر واقعية ندركها بالظواهر الذاتية : أي العقلية . فالواقع يكون موضوعياً ندركه خارج ذواتنا.

أما الواقعية فهي مذهب فلسفي يرى أن للمادة وجوداً حقيقياً مستقلاً عن الإدراك العقلي ، و أن العالم له وجوده الموضوعي المستقل .

(المترجم)

٢- أحسب أن أدلر يستخدم مفهوم الحياة بمعناه الواسع أو ما يطلق عليه في علم النفس (حيز الحياة النفسي) ، ويراد به الواقع السيكولوجي المحيط بالفرد ، و يحتوي على كل الوقائع الممكنة القادرة على تحديد سلوك الفرد . ويمكن تمثيل الفرد بدائرة ، و تمثيل حيز الحياة بشكل بيضاوي يحيط بالدائرة و أكبر منها ، و الفراغ داخل الشكل البيضاوي بما فيه الدائرة ، هو حيز الحياة النفسي ، ومن بعد الشكل البيضاوي يوجد العالم المادي الكبير .

(المترجم)

٣- علم النفس الفردي بإسم الفريد أدلر يرتبط . فهو مؤسسة وزعيم مدرسة تسمى بهذا الإسم . لذلك فهو علم ينسلك في عداد مدارس علم النفس المعاصرة . له خصائصه و اهتماماته .

(المترجم)

٤- الحتمية : المذهب الذي يقول إنّ لكل نتيجة سبباً .

لذا يكون السلوك نتيجة لعوامل و أسباب عديدة كأئنة أما في بيئة

الفرد ، أو في نفسه . لذلك تتشـعب الحتميـة شـعباً شـتى ، وتختلـف بشـأنها المدارس النفسية و الفلسفية .

(المترجم)



الفصل الثاني

الفرد بين العقل والجسد

كان الجدل ولا يزال دائماً محتدماً حول ، أيهما يتحكم في الآخر: العقل أم الجسد . و الفلاسفة هم الآخرون إصطفوا في هذا النقاش المشتجر ، تارة آخذين بهذا الموقف ، وتارة أخرى متجانفين عن هذا الرأي ، ملتمسين سواه ؛ هكذا كان ديدنهم مثاليين Idealists كانوا أم ماديين Materialists ؛ و انتهى بهم الجدل إلى التشعيب و التكثير ، والمسألة لم تزل قائمة حولاء لم تعالج بعد . ولعل علم النفس الفردي [١] Individual Psychology بوسعه إسداء شيء من الحل لهذه المماحكات ؛ ذلك لأننا في مجال علم النفس تجبهنا حقاً مشكلة التفاعل المتبادل الحي بين العقل و الجسد . فأحدهما – العقل و الجسد – هو ما تنبغي هنا معالجته و الاهتمام به ، وأن أخفقت معالجتنا له وكانت المعالجة هذه مبينة على أسس متضعضعة فلن يكون في مقدورنا إنجاده ، ونظريتنا في هذا المضمار يجب أن تنطلق بالتحديد من مثابة الخبرة و التجربة ، ويجب أن تصمد بالتجديد إلى محك التطبيق . إذ إننا نحيا في معمعان الإحتكاك بين التفاعلات ، وهذا ما يجعلنا نواجه أقوى التحديات لأستبانة ما نلتمس من وجهة نظرٍ صائبة و سليمة . وعندي أن علم النفس الفردي ببيانه وجدته يزيح كثيراً من انكماشات التوتر Tension عن غباشات هذه المشكلة .

فلا ينبغي لها أن تمكث حيث هي كما لو كانت مسألة (إمّا .... وإمّا). وذلك أننا نرى أن كلاً من العقل و الجسم إنما هما إفصاح عن الحياة ، فكل منهما يتجلى فيه تعبير عن الحياة وعنها يكشف وفيه تتمثل : وكلاهما جزء من الحياة ككل غير مجزأة .و أننا لنفهم علاقتهما المشتركة في ذلك الكل . و إن حياة الإنسان إنما هي حياة كائن حي متحرك ، ولن يكفيه شيئاً أن يتطور جسمه وحده أو ينمو . فحياة الإنسان تتباين كلياً وحياة النبات . فالشجرة مثلاً حية وتنبض بالحياة ولكنها تخلو من العقل الذي يتميز به الانسان . وانها ليست بقادرة على أن تغادر منبتها أو تختار وجهتها التي تريد . فهي بخلاف الكائنات الحية المتحركة لا تمتلك عقلاً وليس لها الروح على النحو الذي تفهم به عند الإنسان .

والكائنات الحية المتحركة حركة ذاتية ، بمقدورها أن تستبصر مع تفاوت واضح ، و تستطيع أن تتحكم بوجهتها إلى جهتها التي تريد ، وهذه الحقيقة تلزم بضرورة التنصيص على أنها مخلوقات تتمتع بعقول لها و الأرواح . وقد أصاب شكسبير حيث قال :

" حاسة وحس ، حقاً ، لديك ،
وإلاّ فكيف تتحرك في مجاليك " [٢] .

فهذا التوجيه الذاتي صوب الاتجاه المطلوب في التحرك و الحركة هو الأساس و المبدأ المركزي الذي يعكس جوهر العقل . وما إن نقرّ بواقع هذا الأصل حتى نغدو في موقع يؤهلنا لفهم كيف يتحكم العقل بالجسم – بل وكيف يرسم خطاطة الهدف الموجه إلى حركة محددة . فلن يجدي الكائن الحي فتيلاً أن تكون حركاته عشوائية ، بل ينبغي أن يكون ثمة هدف مرتجى يسعى إليه . وما دامت وظيفة العقل تتحدد بتقرر الغاية التي تسدد صوبها الحركة المقصودة ، فهذا من شأنه أن يمنح العقل صدارة التحكم بموقع متمايز في الحياة . وفي ذات الوقت ، فإن الجسد يؤثر في

العقـل ، وعلـة ذلـك أنـه الجسـد هـو الـذي يجـب أن يتحـرك . فـالعقل باستطاعته أن يحرك الجسد فقط في نطاق الإمكانيات التي يمتلكها الجسد، وفي الحدود التي تتوفر له – للجسد – لكي يصل مستواه فيها من التطـور الذي أتاحه له لتجريب و المران . فلو أراد العقل مثـلاً ، أن يحـرك الجسـد لينتقل إلى القمر ، فأنه سيخفق لا محالة ، ما لم يستكشـف التقنيـة الملائمـة التي تتيح للجسد و لنطاق محدودياته التحرك بشكل مناسـب ليبلـغ غايتـه المطلوبة منه .

أكثر الكائنـات حركة هو الإنسـان . وان المقصـود بالحركـات هنـا ليست حركة اليدين ، أو الحركات الإعتباطية ، بـل المـراد بذلـك حركتـه الدائبة وقدرته على تغيـير بعـض معـالم بيئتـه حتـى . فهـو أقـدر مـن سـائر الكائنات الأخرى على تطويـع ملامـح حياتـه . فحـري بنـا ، لذلـك ، أن نتوقع أن قدرة الإنسان على النظـرة التحسـبية هـي أرقـى مـا وُهِـبَ هـذا الإنسان : وهي موهبـة العقـل المتطـور المسـتنير ، وهـذا يتضمـن مضمونـاً مؤداه أن في ذات الإنسان تكمن جذور البراهين المؤكدة لكفاحه الغرضـي توخياً لمكانته المتكاملـة مـع كـامل الإعتبـارات للمكانـة البشـرية وموقعهـا الإرتقائي في الحياة .

وبوسعنا بعد البحث و التقصي ، أن نتبين ، فضـلاً عـن ذلـك ، انـه تكمن هناك وراء كل حركة جزئية باتجاه أهـداف جزئيـة ، حركـة شـاملة تنتظم جميع هذه الأجزاء ، فنتبين أن كـل سـلوكياتنا ترمـي في توجههـا إلى بلوغ موقع يتحقق فيه إحساس بالطمأنينة وقد ضمناها ، إحساس نستشعر فيه بأن مصاعب الحياة كافـة قـد تمكنـا منهـا ، وان نستشـعر ذلـك ونحـن آمنون من كل ما هناك من مخاطر نخشاها ، نأمن من هذا كله وقد وقـر في خواطرنا بأننا نحن الفائزون . على أن نجتهد في هـذا الاتجـاه وهـذا الغـرض Purpose في أذهاننا ، يجب أن نخلد إلى أن كل خطواتنا وأفعالنا إنما هـي

متناغمة و تنتظمها روح التوحد لكي يتأتى السلوك منسجماً مع الهدف المشروع و المنشود : وأعني بذلك أن يكون العقل متوفراً لإستنجاز هذه الخطى الغرضية وكأنها تمثل هدفاً مثالياً نمائياً نهائياً . ولا يختلف الأمر شيئاً بالنسبة إلى الجسد في هذا السياق : إذ لا معدى له في هذه الحالة أن يكون نشاطه أيضاً منسقاً ومنسقاً متأتياً من انتظام وحدته الكلية الوظيفية . فهو - الجسد - يتطور ، كذلك ، باتجاه هدف مثالي جذوره كائنة قبلاً في مؤلفات بنيانه . فاذا ما جُرح الجلد مثلاً فإن الجسد كله يتنادى ليستعيد وحدته الكلية كاملة ودرء ما قد يتهدد بنيته من خطر . بيد أن الجسد ، في هذه الحالة ، لا يقف وحده في خوض كفاحه هذا في الحياة ، ومن أجل الإعراب عما فيه من طاقات كامنات ، فالعقل هو الآخر كائن هناك في مضامير اهاب الجسد ، لذلك هو يهب لنجدة الجسد في استكمال سيرورة تطوره هذا . إن قيمة التمرينات للجسد و التدريب اللازم له ، و قيمة الصحة العامة ، كل هذه قد برهنت على مقدار قيمتها و أهميتها للجسد ككل ، فهذه كافة إمدادات مساعدة توفرت للجسد ، وقد أسهم العقل فيها ليتاح للجسد بلوغ الهدف النهائي وما كان يرمي إليه من موقع غائي.

فمنذ لحظة إطلالة الإنسان على هذا الكون حتى آخر نأمة من حياته على وجه هذا الكوكب ، يلبث هذا التشارك بين العقل و الجسد يتردد صداه فلا يخفت ولا تنفصم عراه . فهما لا يبرحان يتعاونان إذ هما كل لا يتجزأ وأحدهما من الآخر لا يتبرأ : فهما إثنان في واحد كلي . [٣] فمثل العقل كمثل المحرك Motor ، ساحباً معه كل ما في الجسم من قوى وطاقات يستكشفها قائمة فيه ، جاعلاً من ذلك علة قاصدة تمكن الجسد من بلوغ موقع يتبوأ فيه الأمان و يحقق فيه التفوق على كل ما يعترض طريقه من معوقات وصعوبات . ففي كل خطوة يخطوها الجسم ، وفي كل حركة يأتيها ، وفي كل تعبير يبديه أو عرض Symptom يظهر عليه ، نستطيع أن نلمح أثراً من آثار الغرض العقلي واضحة معالمه . فالإنسان

يتحرك جسده كله أو جزء منه . وقد تتحرك حاسة من حواسه إرادياً أو انعكاسياً . ولكن ما من حركة تصدر عنه إلا ومنحها العقل معناها ومغزاها . ولنا أن نرى في هذا السياق علم النفس ، أو علم العقل ، كما نطلق عليه ، لنرى بأي شيء حقاً يُعني في الواقع . أن ميدان علم النفس هو البحث عما تنطوي عليه جميع سلوكيات الفرد و تعابيره من معنى له دلالته ، و انه علم يسعى إلى العثور على المفتاح الذي يمكّن الإنسان من الاهتداء إلى هدفه ، ويمكنه أيضاً من مقارنة هدفه مع أهداف غيره من أبناء جنسه .

فالإنسان وهو يسعى جاداً صوب تأمين هدفه في الطمأنينة ، فإن العقل لا يكف عن الاجتهاد في هذا السبيل ولكنه دائماً يكد نفسه من أجل أن يجعل هذا الهدف ملموساً . وغايته : (أن الطمأنينة تتوفر في هذا المكمن ، وأن بلوغها مؤمّن عن طريق هذا الاتجاه). ولكن هل سانحة الخطأ مستبعدة ؟ ما من أحد يتكفل بنفي إحتمال حدوث الخطأ ، ولكن ينبغي التأكيد على أنه من غير وضع نصب العينين هدف محدد ، ومن غير إشتراع اتجاه مسدد ، فلن يكون ثمة للإنسان حركة لها غاية . فيبدو المرء وكأنه خلق عبثاً . وهذا منافٍ تماماً لشرعة الحياة ومعناها . فهدف توفير الطمأنينة وتأمين الأمان غاية يطلبها حثيثاً كل إنسان ، لكن مكمن الخطأ يتمثل في التواء التوجه الذي كان يمكن أن يفضي إلى حيث الأمان نتيجة لإختلال الخطى التي ضلت الطريق .

وإذا ما لاحظنا عرضاً سلوكياً ضالاً ، فما علينا إلا أن نحلل خطواته ضمن إطار الحركات التي آلت إليه . وهذا يصدق على أي سلوك يظهر في تصرف الفرد نراه منافياً للروح الاجتماعية ، ومخالفاً للأعراف الأخلاقية . وان نقنع مرتكب الخطأ بأنه قد ضل السبيل وجانف جادة الحق ، وان نحمله على العودة إلى الصف الاجتماعي القويم ، وهذا حري

بالتحقيق ، لأن الغاية ينبغي أن تكون إصلاح الجميع وهي غاية الجميع في المجتمع السليم المعافى .

إن ما استخدمه الجنس البشري من تطوير في بيئته نطلق عليه تعبير: حضارتنا ؛ وحضارتنا هذه إنما هي نتيجة عما تمخضت عنه عقول البشر ، عقول أطلقت طاقات الأجساد . وما أعمالنا إلا ما إنقدحت عنه عقولنا . وان ما بلغته أجسادنا من تطور إنما تم بفضل توجيه و إعلاء ارتقائه من جانب العقل . فلعقولنا الفضل في كل ما بلغناه من نماء وتطور. وإذا كان يتعين علينا أن نتغلب على ما عساه أن يبرز أمامنا من عقبات ، فلا بد لأبداننا في هذه الحالة نفسها للمواءمة من أجل أن تتحمل نصيبها من عبء المسؤولية الحياتية . فالعقل ، إذن ، منهمك في التحكم في الوسط البيئي لكي يجد الجسد متسعاً له يحمي فيه ذاته - الجسد محمي بفواعل العقل : الجسد محمي من الاعتلال ، والمرض والموت الناجم عن التلف أو الإتلاف ، ومن الأحداث [٤] ، ومن عوارض الخلل الوظيفي الذي يحدث للجسد في أية لحظة من لحظات حياته . وهذا هو الغرض الذي تهيؤه لنا قابلياتنا لنستشعر اللذة Pleasure والألم [٥] Pain ، ولإستحداث ضروب الخيال ، ولتمكيننا من اصطفاء مواقف الخير ، أو ربط هذه المواقف بعناصر الضُر . ونحن هنا نكون بصدد وسائل عقلية لها عمقها ولها دلالتها : اعني الأخيلة Phantasies ، والتعينات الذاتية ، أو التوحدات ، التقمصات Identifications ، وكلها أساليب عقلية استباقية تستحث الأحاسيس وتستثير المشاعر لكي تحفز هذه الأخيرة الجسم ليعبيء طاقته بغية العمل المناسب لمواجهة ما يطرأ من مواقف : ومن هنا تتأتى الإنجازات وتتولد الإبداعات وبهذه الطريقة تكون أحاسيس الفرد قد انطوت على ما تسبغه على الحياة من معنى له رونقه وصفاؤه ، أو قد لا يكون كذلك بل يكشف عن بلاهة وتفاهة . ومن هذه المثابة تتباين ما هناك من أهداف يختطها لأنفسهم الأفراد ، وبتفاوت الأهداف

هذه تختلف أنماط الحياة : وفي هذا يستبان مقدار حظوظ الأفـراد في مـدى جدوى عطائهم الطيب لهم ولغيرهم .

فلا أسلوب الحياة وحدها تتحكم بالفرد ، ولا إتجاهاتـه بمفردهـا هـي الـتي تخلـق الأعـراض المرضيـة عنـده .والجديـد في نظرتنـا إلى علـم النفـس الفردي ، وكيفية إستبصاره في أعماق الذات الفرديـة ، هـو إن أحاسـيس المرء ليست في تناقض أو صراع مع مـا يختطـه لنفسـه مـن نهـج وأسـلوب حياة يرتضيه فيها . وحيثما وجد الهدف وكان ، فإن الأحاسيس والمشاعر تكيف نفسها من أجل الظفر به . وهذا من شأنه أن يبعدنـا في هـذه الحالـة عن حوزة علوم الفسلجة من حيـث هـي وظـائف الأعضـاء ، وعـن علـوم الحياة Biology ؛ ذلك لأن الأحاسيس حينما تطفح و تطفـو فـلا يمكـن أبـداً تفسـيرها ، وهـي تمـور ، بمصطلحـات نظريـة وكيماويـة، وليـس في المستطاع الإنباء عن فورانها بمجرد الفحص الكيماوي . وفي *علـم النفـس* الفردي ، خليق بنا أن نضع مسـبقاً في اعتبارنـا العمليـات الفسـيولوجية ، ولكن الأحوط لنا أن يكون علي الهدف السيكولوجي تركيزنا . فلا يجـدر بنا أن يكون جُل اهتمامنا منصباً على استحواذ القلق وتأثيره على أعصاب الجهـــــازين الســـــمبثاوي Sympathetic والباراسمبثـــــاوي Parasympathetic [٦] ، بل حري بنا أن نتحرى غـرض القلـق وغايتـه. وفي إطار من هذا المفهوم ، فلا يمكن النظر إلى القلق بأنه ينشأ ويطل برأسه من ثنايا الكبح Suppression [٧] للدوافع الجنسية وقمعها ، أو اعتبارهـا من مخلفات خبرات الولادة ورواسبها الكاربة . إن من يذهب هذا المذهب يكون قد جانف جادة الصواب وأخطأ الهدف المنشـود . فنحـن نعـرف أن الطفل الذي يتعود على أن يكون دائماً بصحبة أمه ، ويعتاد في كل حركة وخطوة على أن تهب لمساعدته وان تقوم بحمايته ، يمكن أن يجـد في القلـق – مهما كان مصـدره – سـلاحاً ماضيـاً يسـتخدمه للسـيطرة علـى أمـه و التحكم بها وبعواطفها لإرضاء رغباته كما يشاء ويهوى . ولذلـك فنحـن

لسنا مقتنعين بالوصف الفيزيقي للغضب ، ذلك لأن الخبرة قد برهنت لنا على أنّ الغضب إنما هو وسيلة تراد في بابها ، و القصد منها الهيمنة على شخص ما أو موقف محدد . وبمقدورنا أن نحسبه من المسلّم به بأن كل تعبير بدني وعقلي يجب أن يكون مؤسساً على ركن مادي موروث ، ليس غير ، لكن انتباهنا في الغالب يكون موجهاً إلى الجانب المستفاد من هذا الركن المادي ، خلال سعي الفرد صوب تحقيق هدف محدد بعينه . وهذا ، كما أرى ، هو المنحى السيكولوجي الحقيقي الوحيد والصحيح.

فمشاعر الفرد و أحاسيسه تنحو بأزاء الجهة التي يراها ملائمة لاستنجاز هدفه . فنرى ، مثلاً ، ان قلقه أو مدى شجاعته ، أو بشاشته، أو ابتئاسه ، كلها تتواءم دائماً وما اعتاده من أسلوب خاص به في الحياة : وكل هاتيك السمات تتناسب من حيث قوتها وسطوتها مع ما يمكن أن نتوقعه منه تماماً . فمنهج الفرد الحياتي يصبح جزءاً من أسلوب له يرتضيه. وليكن معلوماً أن الإنسان الذي يتوخى تحقيق هدفه في التفوق عن طريق الحزن و الأسى ، لا يمكن أن يكون مرحاً ولا يكون راضياً في قرارة نفسه عما حققه من إنجازات ؛ وإنما هو يكون مغتبطاً وسعيداً فقط في حالة كونه تاعساً بائساً . وباستطاعتنا أن نلاحظ كذلك أن الأحاسيس تبزغ و تختفي حسب الحاجة . فالمريض نفسياً الذي يعاني من رُهاب الخلاء [٨] Agoraphobia و المخاوف غير الطبيعية من الأماكن المفتوحة تزايله أمارات القلق عندما يكون بين جدران داره أو حينما يرى ذاته وقد سيطر على إنسان آخر وأخضعه لإرادته . هذا ، وان مرضى العُصاب كافة لايرون شيئاً طيباً في عيش الحياة ، ما لم يحسوا ويشعروا بأنهم هم الأقوى و انهم هم المسيطرون .

و الشحنة الإنفعالية هي الأخرى تمكث ثابتة شأنها شأن نمط الحياة وأسلوبها . فالجبان ، مثلاً ، يلبث حياته كلها جباناً حتى وان بدا عدوانياً

ومتغطرساً على الناس الأضعف منه ، حتى لو بدا شجاعاً عندما يجد نفسه محمياً بقوة الآخرين . فهو في قرارة نفسه مليء بالجبن و الخَوَر . لذلك فهو يُحكِم إقفال بابه بثلاثة أقفال ، ويحتمي ، فوق ذلك بكلاب بوليسية، و يضيف إليها مصائد المغفلين ورغم هذا كله فإنه يصر على أنه شجاع مقدام . وما من أحد بوسعه البرهنة على عمق قلقه ؛ لكن أغوار الجبن الدفين بين أضالعه و السائد في طبيعته تلوح في مخائله ومن خلال عنائه البادي في مقدار تحوطه المبالغ فيه لحماية نفسه .

ففي كل مسرب من مسارب الحياة نجد دائماً أناساً اختلت عندهم وظائف نفسية أو عضوية . ومجال بحثنا هنا هو الجوانب النفسية ووظائفها الحياتية . وهكذا تكون عادة مصحوبة بفتور في الإحساس الإجتماعي ، وتخاذل في الشجاعة ، وسلوك يصطبغ بالنزعة التشاؤمية .

وأننا لنجد أحاسيس الشعور بالذنب Guilt تبقى تلاحق صاحبها حيثما حل لأنها تعوي كالذئاب في كهوف نفسه . فهذا أحد مرضاي ، وهو الطفل الثاني في الأسرة ، نشأ وهو يقاسي أقسى مشاعر الإحساس بالذنب يلازمه فلا يبارحه . كان أبوه و أخوه الأكبر يؤكدان عليه يومئذ على ضرورة مناقب الأمانة و الإلتصاق بها . وعندما بلغ الصبي السنة السابعة من عمره ذهب إلى معلمه ليسلمه واجباً بيتياً مطلوباً منه و اخبره بأنه من إنجازه ، و الواقع كان أخوه هو الذي أعده له . أخفى الصبي أحاسيس ذنبه فترة ثلاثة أعوام . وأخيراً لم يستطع تحمل إعوال الذنب في داخله ، فذهب إلى المعلم وافرغ ما في صدره معترفاً له بكذبته الصلعاء الشنعاء . فما كان من معلمه إلاّ أن ضحك واكتفى . لكن الصبي لم يقف به الأمر هناك ، بل قصد أباه وأقرّ له بما في صدره وثناياه . وفي هذه المرة قد أفلح الصبي هذا . كيف؟ ذلك أن الأب أظهر بالغ فخره بإبنه الصادق الصريح ، وأبدى إعجابه به لحبه قول الحقيقة ، بل أن الأب امتدحه

وطمأنه. ولكن رغم أن الأب قد هوّن عليه خطيئته ، فإن الصبي استمر مكتئباً . فما دلالة ذلك ؟ انه لمن العسير مجانبة الحقيقة الآتية : وهي أن الصبي ذلك كان طوال فترة معاناته تلك يضمر في طوايا ذاته رغبة أكيدة يرمي من خلالها إلى تكامل في الذات على ضوء سماعه التوكيد الواعظ على الأمانة و الصدق و الشرف ، فأراد لذاته أن يكون متزمتاً في هذا الجانب الذي كان يخزه بدبابيس الإثم المرير جعل يلازمه ويضيق عليه الخناق في كل لحظة ، فكان يحس وكأنه يختنق من أرماض توجعه ، وكلها تنضح من مصدر واحد : وتلك هي هنة تافهة .وعلة تضخيم الأمر على الشكل الموصوف ، وتجسيمه أمام عين نفسه يعزى إلى أن جو البيت الذي كان يعيش فيه أدخل في روعه ، وحفّز لديه دافع التفوق وإحراز قصب السبق في تأطير معنى الكرامة والتكامل . وفي هذا المنحى ألفى نفسه في موقع مناقض تماماً ، إذ جعل الصبي يشعر بالنقص حيال مجاراة أخيه في الواجب المدرسي وفي الجاذبية الاجتماعية ؛ وإزاء إحساسه بالنقص الراقد هذا حاول أن يجرب حظه في انتهاج سبيل ملتوٍ خاص به لبلوغ مبتغاه .

وفي لواحق حياته أخذ هذا الشاب يعاني معاناة حادة من جراء *لوم* الذات [٩] Self - Reproach . فراح يمارس جلد عميرة ، وانه لم يبرأ قط من مزاولة الغش في الامتحانات .وسار في طريق حياته يراكم على نفسه مشكلات من هذا القبيل ، من ناحية ضميره الحساس كان مثقلاً بمشاعر الذنب أكثر مما كانت الحال بالنسبة لأخيه ، وبهذا كان يجد العذر مهيئاً لديه لتقبل جميع أصناف الفشل التي تجعله عاجزاً عن اللحاق به . لذلك فهو بعد إتمام دراسته الجامعية كان يأمل أن يشق سبيله في ميادين الأعمال التقنية ، غير أن انشغاله بإجترار كوامن مشاعره الإستحواذية التسلطية ، لم تدع له متسعاً ولا فضلة من الوقت يمارس فيه ما ينفعه .

بيد أنّ قصة هذا الفتى هل انتهت ؟! .

لقد ساءت حالته إلى أقصى حد ، مما أضطر ذويه إلى إدخاله مصحة عقلية ، وهناك اعتبرت حالته عصية على الشفاء . وبعد لأي من الزمن أمضاه في المصحة ، تحسن وضعه الصحي بعض الشيء فغادرها ، مع الاحتفاظ لنفسه بحق العودة إليها إذا ما تدهورت صحته من جديد أو في حالة الإنتكاس . في هذه الأثناء غير مهنته ودرس تاريخ الفن . فدنا وقت الإمتحانات . فما كان منه إلا أن ذهب الى أحد دور العبادة . وهناك ألقى بنفسه أرضاً أمام جموع المصلين ، وهو ينتحب : (أنا أعظم الخطائين ذنباً من بين جميع البشر) . فهو بطريقته هذه إستطاع ، ثانية ، أن ينجح في إجتذاب الانتباه إلى تعذيب ضميره الحسّاس .

وماذا بعد ؟!

بعد فترة أخرى قضاها في المصحة ، عاد إلى بيته . وفي إحدى المرات خرج من غرفته عارياً وجلس بين أفراد الأسرة . كان رجلاً متناسق الجسم مكتمل البنيان . وقد أراد بمسلكه هذا أن يبزّ أخاه ويباهي غيره ممن حوله من الناس الآخرين .

فما هو تعليل كل ذلك ؟

إنّ مشاعر الذنب عنده كانت من داخله وكأنها مهاميز تدفعه لكي يظهر أنه أكثر أمانة و أوفر استقامة ممن سواه من الآخرين ، وبهذه الوسيلة كلن ينافح جاهداً لتحقيق تفوق يتوق إليه . بيد أن منافحاته تلك كانت مصوبة تجاه جوانب جوفاء مما يبتغيه من الحياة . وان هروبه من الامتحانات ومن الأعمال و المهن الكسبية ، لهو علامة على سريرة الجبن القابعة خلف إهابه ، كما أنه – هروبه – دلالة معالم الأحاسيس الغائرة في أغوار ذاته صارخة للتدليل على عجزه وتدني كفايته [١١] . وان مجمل وضعه العُصابي لهو وسيلة و أداة غرضية غايتها إستبعاد أي نشاط يخشاه لئلا يبان فيه إخفاقه و انكساره . ويصدق هذا الرأي نفسه على سائر

تصرفاته الأخرى حيث كان يلهث خلف تفوق يرتجيه بطرائق مهلهلة ، كإنبطاحه أرضاً أمام المصلين ، وظهوره عارياً بتلك الشاكلة المثيرة في غرفة الطعام . فأسلوبه في الحياة ، وما كان يقاسيه من تفكك كلها أملت عليه ذلك الذي حسبه مناسباً لكنه في حقيقة الأمر سلوك مستهجن .

ها إننا قد لاحظنا ، انه خلال السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياته يكون الفرد قد أمتهد أُولى بواكير وحدة عقله وفي هذه السنوات الباكرة يكون قد أقام علاقات التوحد المدمك بين عقله وجسمه . فهو يأتي إلى هذه الحياة الدنيا حاملاً في تلافيف عقله وجسمه عناصره الوراثية، ومن بيئته يتلقف انطباعاته ومن ثم يكيفها ليتابع وفق ما تمكنه مَلَكاته . فما إن يشارف نهاية عامه الخامس من بدء دبيبه على الأرض حتى تكون شخصيته قد تبلورت معالمها . فمن معنى يلصقه بالحياة ، ومن هدف يحسبه له مجدياً ، ومن نمط حياة إليه يتوجه ، ومقصد عنه يَنْدِس و يَنْدِش [١٢] ، من إنفعالات عليها اعتاد ، ومن إستعدادات عاطفية عليها إرتاض ، هذه كلها وأخرى سواها تكون قد اكتسبت خصائصها في هاتيك الأعوام الغضة ، وخلالها تكون قد تثبتت . هذه في النهاية يمكن أن تتغير ؛ غير أن تغيرها مرهون فقط بمقدار تحرره مما كان قد إكتسبه إبان طفولته من معان خاطئة أضفاها على ما كان يحيط به من ملامح الحياة : أي قبل تبلر معالم شخصيته في أوائلها . فتكيفه مع ظروف الحياة الرحيبة يتوقف على مقدار استجابته المرنة لمتطلبات حياته الأخلاقية و النفسية و الإجتماعية المتجددة.

ومن خلال حواسه يتأتى للإنسان أن يكون مع بيئته في تماس وعلى طبيعة ما يتلقاه منها من إنطباعات تعتمد علائقه على كل ما في الحياة . وعن طريق ما أكتسبه منها من عوائد [١٣] وما ألفه فيها من أوضاع جسميه ، وما تعوده فيها من حركات و إشارات ، نستطيع أن نحكم على

بعض عاداته السلوكية .

ويمكننا أن نضيف إلى سابق تعريفنا علم النفس ، أن نعرفه الآن بأنه علم يتيح لنا فهم اتجاهات الفرد التي يكوّنها نحو ما سبق له أن تلقاه من انطباعات تخص مكونات جسمه وتتعلق بمعطيات الحياة . وهذا من شأنه أن يلقي ضوءاً كشافاً على قائم العلاقة بين العقل و الجسم ، والى أي حد يكون الجسم مؤهلاً للتكيف مع محيطه الذي يحتويه . ذلك لآن الشخص المبتلى بعاهات و تشوهات يلعن البيئة و يتنصل من الحياة . ولذلك فإنه ليصعب على العقل في مثل هذه الحالات أن يخضع الجسد تماماً لكي يتكيف كما يراد . لذا يصبح الجسد عبئاً على العقل الذي يتعب في ترويض الجسد : وقد يفلح فينجح ، وربما يتخلى عن مهمته فيشطح . وهذا من أسباب أخرى كثيرة تؤول إلى متاعب نفسية وانحرافات سلوكية. ويترتب على هذا كله إنحسار مشاعر التواد الاجتماعي و إنكماش القدرة التي كان بوسعها بسط أفاق التواصل السيكولوجي . وفي هذا يكمن خسران فادح ما بعده خسران .

ومن انفعالات المرء وحركاته و تعابيره نخلص إلى ما يمكن أن نطلق عليه (نطق الجسم) ، أي أن الجسد يتكلم على طريقته الخاصة . فالفرد في انفعالاته ، الايجابية منها و السلبية ، تظهر تعابيره واضحة منظورة ؛ إذ قد يبدو هذا جلياً في وضعية جسمه ، وفي وقفته و مشيته ، في تعابير وجهه ، أو في ارتجاف ساقيه ، أو اختلاجات ركبتيه . كلها حركات جسمية متآزرة أو متناثرة .

كل تلك الاستجابات تتوقف على ما هناك من أنماط مختلفة على أساسها يتباين الأفراد . فقد تجد فرداً في موقف من الخوف ، فيرتجف . فترى آخر في نفس الموقف وقد قفّ جلده و انتصب شعره . وغير هذا

وذاك ، ترى ثالثاً وقد توالت خفقات قلبه . وخلاف هؤلاء ، تلقى آخرين يتصببون عرقاً أو يكادون يختنقون . وعلى نقيض أولئك كلهم ، تسمع سواهم تتهدج أصواتهم حين يتكلمون ، فتسمع واحدهم وكأنه بحّ صوته و أخشوشن ، أو تراه وقد تقلص جسمه و تكوّر .تلك هي بعض الأمارات وما تستتليه من عياف للطعام واحتباس في المثانة أو تدفق فيها بلا تحكم فيها ولا سيطرة عليها .

غير أن الأساليب التي يتأثر بها الجسمٍ لم تستوف ، بعد ، حظها من البحث ، المستفيض . فالتوتر العقلي مثلاً يصيب أثره كلاً من الجهاز العصبي الإرادي و الجهاز العصبي الحيوي [١٤] Vegetative . فحيثما كان ثمة توتر ، كان هناك نشاط يتبعه في الجهاز الإرادي . فالشخص المتوتر قد تصدر عنه حركات لا يدري لماذا أتاها ، كأن يقرع المنضدة بكفه وهو لا يدري ، وقد يعض على إحدى شفتيه دون أن ينتبه ، أو تراه يعلك قلمه وهو سهوان ، أو تلحظه يحرك لفافة السيجارة بلسانه بين شفتيه وهو متوتر أو غضبان ، أو تلمح منه اختلاجات بادية ، وكلها تعبر عن نوابض جسمية تأتت ولا سيطرة للفرد عليها ، لكنها كلها تنّم على توتر مكين .

فمن كل ذلك نستخلص ولا يعوزنا البرهان المعقول ، إن نمط الحياة و الاستعداد الإنفعالي المرتبط بذلك النمط ، ليفرضان من التأثيرات التي ليس في طوق الجسد مقاومتها و إبعاد صولتها .

ومن الصعوبة بمكان أن ننكر اليوم الأثر الذي يتركه العقل Mind على الدماغ (المخ) Brain . العقل هو المجموع الكلي المنظم للعمليات النفسية المنطقية التي تمكن الفرد من التفاعل مع بيئته . وفيه تتمثل مجموع الخبرات الشعورية . وقد يكون العقل ، عند بعض النفسانيين كالتركيبيين

مثلاً ، هو الذات أو النفس ، وقد يكون الفكر أو الذكاء . يصفه بعضهم بأنه شيء . ويرى بعضهم أنه عمليات نشاطية وليس شيئاً . وأيّاً كان الأمر ، فالعقل ليس بناءً سكونياً أو شيئاً مادياً . وإنما هو وحدة ديناميـة ، من خصائصه ألترابط في النشاطات ، و التتابع في الإستجابات التكيفية ، و العقل يرتبط بالبدن برغم الفصل الذي تصطنعه اللغة بين الإثنين .

أما الدماغ (المخ) فهو كتلة من النسيج العصبي التي تملأ الجمجمة ، يتألف الدماغ من أجزاء شديدة التعقيد ، تبدأ في أسفلها ، من فوق الحبل الشوكي ، بما يسمى النخاع Medulla . ويضم النخاع الممرات الشوكية ومراكز تنظيم عدد من الوظائف كالتنفس و الدورة الدموية . ففي الدماغ تتم عمليات إستقبال النبضات الحسية الواردة من أعضاء الحس المختلفة ، وفي الدماغ تتم عمليات التآزر الحركي لأعضاء الجسم كافة .

وعلم الأمراض Pathology : أسبابها و أعراضها ، قد أوضح لنا أن هناك حالات فقد فيها أفراد قدرتهم على القراءة و الكتابة ، وكان ذلك بسبب عطب أصاب النصف الأيسر من الدماغ ، لكنهم ، رغم هذا، تمكنوا من استعادة هذه القدرة عن طريق تدريب أجزاء أخرى من المخ عوضتهم عن ذلك .ويحصل أحياناً أن يصاب فرد ما بجلطة دماغية فلا يعود ممكناً إصلاح الجزء التالف من الدماغ ، ومع ذلك فإن أجزاء أخرى من الدماغ تعوض عن القسم الذي أصابه التلف ، فتستعيد وظيفة تلك الأعضاء ، وبذلك تكمل مرة أخرى مهمة ملكات المخ . هذه الحقيقة لها أهميتها الخاصة بها ذلك لأنها ترينا إمكانيات التطبيق التعليمي و التربوي لعلم النفسِ الفردي في مجالات الحياة . وذلك لأسباب عمليه تطبيقية شتى. فمثلا ، إذا كان بمقدور العقل أن يؤثر هذا التأثير كله على الدماغ، وإذا كان الدماغ بدوره ليس بأكثر من أداة Tool يستخدمها العقل :

بل أن الدماغ كان ولا يزال لحد الآن أهم آلة و أميز أداة في متناول العقل ، إذا كان هذا كله متيسراً ، ففي وسعنا إذن ، و بإمكاننا أن نطور هذه الأداة وان ننميها ونحسّنها في هذا الاتجاه . فما من أحد يولد محكوماً أبداً بذلك المستوى و المعيار الواحد : إذ في الإمكان إيجاد سبل وطرائق من شأنها أن تجعل الدماغ أكثر ملاءمة لمتطلبات الحياة وأفضل مواءمة لمقتضياتها .

لكن عقلاً إحتجن [١٥] هدفه ووجهه في غير وجهته المألوفة حسب الأعراف المشروعة ، وأعني به العقل الذي لم يرد لقدرته التناصر و التعاون لوجه الخير ، فإن عقلاً كهذا هو عقل ضال ، وذلك لإحجامه عن ممارسة تدريب الدماغ على النماء بهذا الاتجاه . لهذا السبب بالذات نلقي أغلب الأطفال الذين شبوا عن الطوق ولم يسبق هم أن تلقوا تدريباً وتمريناً لقابلياتهم وتنبيه ذكائهم ، ينشأون وهم يفتقرون إلى شيء كثير من نمو هذه المواهب عندهم ، كما نجد انهم تنقصهم روح التعاون والتآلف .

كثير من الباحثين و المؤلفين قد ذكروا ما هناك من علاقة دائمة بين ما تراءى للعيان من تعابير العقل وتلك التعابير التي يبديها الجسم . وما من واحد منهم حاول أن يستكشف أو أن يربط بين هذين الجانبين المتلازمين . لكن كريتشمر Kretschmer، مثلاً تمكن من تمييز أنماط يستطيع الفرد أن يسلك في نطاق إطارها نسبة كبيرة من البشر . فمن هذه الأنماط التي وصفها كريتشمر ، مثلاً ، النمط المكتنز ، وهم أفراد من ذوي الوجوه المستديرة ، و الأنوف القصيرة ، وعن هذا النمط تكلم شكسبير على لسان يوليوس قيصر [١٦] :

علّي أن يلتف حولي المكتنزون الأشداء من الرجال [١٦] .
رجال من مدببي الرؤوس وعند ذاك أنام ليلي مطمئن البال .

وخلاف النمط المكتنز ، يميز كريتشمر نمطاً مناقضاً لذلك ، ويسميه النمط الفصامي ، وأفراد هذا النمط يعانون من تمخّس واضطرابات عقلية. وهؤلاء هم النمط الثاني الذين ذكرهم شكسبير على لسان يوليوس قيصر أيضاً :

بعداً لكاسيوس ونظراته الخبيثة البائنة ؛
إنه وافكاره مطوية ، فأمثاله من الرجال أشرس بطانة كائنة [١٧].

لاشك في أن جميع العمليات العقلية تعتمد على ما يجري في الدماغ من عمليات وما يقوم به من نشاط . وفي ذلك أنصع دليل على وطيد الصلة التي تربط بين الدماغ في حالة سلامته و العقل في كينونته واستنجاز مهمته وأداء وظيفته .

وأيًّا ما كانت الآراء ، ومهما اختلفت الاتجاهات بين المختصين في علم النفس ، فأننا ، من جهتنا ، في علم النفس الفردي ، نولي اعتبارنا لمبدأ الحياة Psyche و أعني به المحتوى النفسي كاملاً متضمناً العقل ومنطوياً على العمليات الشعورية واللاشعورية ، ومحتوياً على النفس ، وبضمنها الروح وخوارقها . وفي هذا الإطار يُضَمُّ العقل موحداً . وهذا يتيح لنا فسحة لأن نتحرى بالاستقصاء و الإختبار ما يضفيه الأفراد عادة من معنى ، يراه كل منهم ، على الحياة أو على نفسهم هم ، أو على ما يلتمسونه من أهداف تخصهم . أو على وجهات يتوجهونها فيما إزاءه جادون ، أو المناحي التي بها يأخذون في مسعاهم نحو مرامي الحياة حسب اجتهاداتهم وعلى وفق تصوراتهم . وأفضل مفتاح في أيدينا نمتلكه حتى الآن لفهم ما هناك من فروق – بين الأفراد – نفسية ، إنما يتمثل في إجتلاء درجة تلاقي الأيدي حباً للصالح العام ، وانعقاد الخناصر في سبيل الوئام .

هوامش الفصل الثاني

١- الفرد أدلر، مؤلف هذا لكتاب، هو صاحب مدرسة علم الفردي .
(المترجم)

٢- هاملت ، الفصل الثالث ، المشهد الرابع .

٣- هذه الصيغة في الرأي لا تختلف كثيراً عن صيغة علماء النفس الجشتطلت .
(المترجم)

٤- جمع حدث .
(المترجم)

٥- مبدأ اللذة و الألم عند أدلر يختلف تمام الاختلاف عنه عند فرويد، وهذا كان من بين الأسباب الأخرى التي باعدت بينهما .

٦- الجهاز السمبثاوي والباراسمبثاوي ، ويسميان أيضاً الجهاز الودي وفوق الودي على التوالي ، و السمبثاوي جزء من الجهاز العصبي الذاتي ، ويتكون من السلسلة العقدية الواقعة خارج الحبل الشوكي وفي موازاته .

(المترجم)

٧- الإشارة هنا إلى مناقضة رأي فرويد .

(المترجم)

٨- ويسمى الخواف (بضم الخاء) من الأماكن الواسعة كالميادين والصحارى . فهو خوف كثيراً ما يكون مصحوباً بالذعر و الهلع .
(المترجم)

٩- لوم ذات يحدث للمرء عند الشعور بالاكتئاب ، وجراء تراكم الذنوب . (المترجم)

١٠- التفكير الاجتراري ، تفكير يستحوذ على صاحبه فيصرفه عن الانشغال بما يجديه ، فيبتعد مضطراً عن مزاولة أعمال تنفعه وتنفع مجتمعه. (المترجم)

١١- كفاية وكفاءة بمعنى واحد ، لكن كفاية أفصح . (المترجم)

١٢- نَدَسَ و نَدَشَ ، بمعنى واحد : أي بحث عن الشيء و تحرك .

١٣- عوائد وعادات : جمع عادة ، و الأولى على غير القياس . (المترجم)

١٤- ويسمى أيضاً الجهاز العصبي المستقل . (المترجم)

١٥- إحتجن الخبر و الأمر وحجبه بمعنى واحد\ وأحتجن أبلغ دلالة . (المترجم)

١٦- يوليوس قيصر ، الفصل الأول ، المشهد الثاني .

١٧- يوليوس قيصر ، الفصل الأول ، المشهد الثالث .

* اقتصر المؤلف هنا على ذكر نمطين إثنين فقط من أنماط كريتشمر وأغفل نمطين آخرين : هما : النمط الرياضي ، و النمط النحيف . (المترجم)

الفصل الثالث

الإنسان ومشاعر القصور و التفوق



إن (عقـدة النقـص) - أو القصـور - The Inferiority Complex ، وهي من أهم اكتشافات علم النفس الفردي [1] ، قـد سـاد الآن استعمالها وشاع في العالم وشاع في العـالم كافـة تداولهـا . والمختصـون بعلم النفس علـى إختـلاف مشـاربهم وفي جميـع مدارسـهم قـد تبنـوا هـذا المصطلح و استعملوه في ممارستهم المهنية . بيد أني لست متأكداً من ، ولا أستطيع الجزم ، فيما إذا كانوا هم على وعي تام من معناه وانهم يفهمـون مؤداه ، و أنهم يستخدمونه بالفعل على وجهه السليم . إذ لن ينفعنا شيئاً، مثلاً ، حين نقول لمريض ما بأن مشكلته أنه يعـاني مـن عقـدة نقـص ؛ وإن نحن فعلنا ذلك فلا نكون قد أسدينا له عونـاً يذكـر سـوى أننـا نكـون قـد أكدنا لديه مشاعر النقـص و القصـور مـن غـير إرادتـه السـبيل إلى كيفيـة التغلب عليها و التخلص منها . انـه ليتعـين علينـا أن نعـرف علـة التهيـب المحدد الذي يعانيه في أسـلوب حياتـه ؛ وان نشـجعه وان نذكـر لـه كيـف موطن العلة الحقيقية التي تنقصه فيها الشجاعة وان نذكر له كيـف ينهـض من كبوته فيها . كل شخص عصابي Neurotic لديـه عقـد نقـص . ولا يمكن في هذه الحالة تمييز الشخص العصابي عن سـائر العصـابيين الآخريـن بمجرد القول انه يعاني من العصاب وان الآخرين من هذا العصاب بمنجاة.

وإنما هو يمكن تمييزه عنهم لإختلاف الموقف الذي يجد فيه نفسه غير قادر على متابعة الجانب النافع له ولغيره من الحياة ، فهو يمكن تمييزه عن سواه بما يكون قد ضربه حول ذاته من قيود أعاقت سيرورته باتجاه النشاط الجدي و الفعاليات الفاعلة النافعة . ولن يجدي العصابي فتيلاً أو يجعله أكثر شجاعة إذا قلنا له : (إنك تعاني من عقدة نقص) ، فقولنا هذا ليس بأكثر من قولنا لشخص يشكو من صداعٍ فنخبره إذ نذكر له : (أستطيع أن أخبرك بما تشكو . انك تشكو صداعاً . أنت عندك صداع)!

كثير من الناس العصابيين سيجيبون بالنفي فيما لو سئلوا إذا كانوا يشعرون بالنقص و القصور ، بل أن جواب بعضهم يكون على العكس من ذلك وبلغة الجزم ؛ فكأن يقول لك الواحد منهم : (أنا متيقن بأنني متفوق و أفوق الناس الآخرين من حولي). فلا حاجة بنا ، إذن ، أن نسأل : بل إننا بحاجة فقط إلى أن نرقب سلوك الفرد حسب . وهناك في هذه الحالة سنرى مقدار تلك الألاعيب التي يتبعها ليؤكد لذاته مدى أهميته في عين ذاته . فلو نظرنا إلى تصرف شخص يتصف بالغطرسة والنزعة العدوانية ، مثلاً ، لاستطعنا أن نحدس يتصرف وكأنه في قرارة نفسه يقول : (الناس الآخرون يبدو انهم يتجاهلون وجودي . فيجب أن أريهم بأنني أنا هنا !) ولو لاحظنا شخصاً يتشدق وهو يتحدث ، فيمكننا حينئذٍ أن نحدس انه في أعماق نفسه يشعر : (كلماتي لا وزن لها مالم أعمد إلى توكيدها) ! فوراء كل واحد يسلك وكأنه فوق الآخرين ، بمقدورنا أن نتوقع لديه إحساساً بالنقص وشعوراً بالقصور ، يستنزف منه جهوداً مضنية لإخفائه و التغطية عليه. فالموقف هنا كحالة الشخص الذي يعتقد بأنه ضئيل الجسم قصير القامة فيعمد إلى أن يمشي على رؤوس أصابع قدميه ليوهم نفسه بأنه أطول مما يظنه الناس . وإننا لنرى مثل هذا السلوك عيانا حينما يتبارى طفلان أيهما أطول من الآخر . فيمد الذي يحسب نفسه أقصر ، قامته ويحبس أنفاسه ويلبث على هذه الحالة فترة

موهماً نفسه أنه يكون بذلك قد بلغ مرامه وانه بسلوكه هذا أكبر من مقامه . فإذا سألنا طفلاً كهذا : (هل تعتقد أنك أصغر وأقصر مما أنت؟)، فمن المتعذر أن نتوقع منه الإعتراف بهذه الحقيقة .

فلا ينتظر ، إذن ، من فرد تتبطنه مشاعر و أحاسيس من عقد النقص و القصور قوية أن يظهر بمظهر الشخص الخاضع الخانع ، الهادىء ، المتروي ، المتوازن . ذلك أن مشاعر القصور يمكنها أن تعبر عن نفسها بآلاف الطرق وبمختلف الأساليب . وربما يتجلى الأمر أكثر وضوحاً . بمثال أضربه هنا عن أطفال ثلاثة إصطحبتهم أمهم إلى حديقة الحيوان لأول مرة . وأثناء وقوفهم أمام سياج الأسد ، فما كان من أحد الصبية الثلاثة إلا أن جفل إلى الوراء فأمسك بملابس أمه وهو يقول : (أريد أرجع إلى البيت) . ووقف الصبي الثاني منهم في مكانه حيث هو ، وهو ممتقع اللون ، يرتجف ، وقال : (أنا لست خائفاً أبداً) . أما الثالث من أولئك الأطفال الثلاثة ، فقد حدّق بوجه الأسد بغضب ، وقال لأمه : (أتريدني أن أبصق بوجهه ؟) . كل من الأطفال الثلاثة أولئك إستشعر التصاغر أمام الأسد آنذاك ، لكن كل واحد منهم ، قد عبّر عن مشاعره بطريقته الخاصة ، بطريقته المتساوقة مع أسلوبه في الحياة كما يُحسها في داخل ذاته.

إن مشاعر النقص ، بوجه أو آخر ، إنما هي عامة شائعة في كل واحد منا نحن البشر ، ما دمنا جميعاً نجد أنفسنا دوماً في مواقف نتوق إلى تحسينها وتطويرها إلى ما هو أسنى و أرقى . فإذا كنا متماسكين ومحتفظين ، بعض الشيء ، بشجاعتنا ، فإننا نشرع بتخليص ذواتنا من مشاعر النقص هذه ونفضها بعيداً عنا ، وذلك فقط بالوسائل المباشرة ، الواقعية – وذلك عن طريق تحسين الموقف الذي نحن فيه نفسه . فما من إنسان يطيق تحمل أحاسيس النقص فترة طويله ؛ ذلك لأنه في هذه الحالة سيجد نفسه وقد

ألقي به في أتون التوتر الذي ينتهي به إلى إتخاذ موقف ما . ولكـن هـب أن شخصاً شاء التخلص من عـبء أحاسيس النقـص الملازمـة لـه ، بأسـاليب لاتفضي إلى حُسن الختام ، فإنه في موقفه هذا لـن يكـون قـد تزحـزح عـن مكان كرباته قيد أنملة . ولكن هل ستنتهي صراعاته عنـد هـذا القـدر ؟ لا مماحكة في أن هدفه سيلبث : (أن يتغلب على مشـكلاته وأن يبقـى فوقيـاً بالنسبة لها) ، غير أنـه بـدلاً مـن قهـر العوائـق والتغلـب علـى العقبـات ، سيحاول خداع ذاته [٢] أو قـد يلجأ إلى تخديـر نفسـه [٣] بالإيحـاء الواهـم إليهـا : إيحـاء الإحسـاس بأنـه متفـوق . وهـذا ضـرب مـن الإيهـام الذاتـي الكاذب . وليس في هذه المراوغات الواهمة ما يغني عن النقـص والقصـور شيئاً . ذلك لأن أسّ المشكلة باق وعلتها في مكانها قابعة ؛ بل أن القصـور سيتراكم وأن مصاعبه ستتفاقم ، والسبب هو أن العوامل التي أحدثته باقية هناك ولم تزايلـه ، إنهـا لم تتغـير . وكـل خطـوة سيخطوها سـتأخذ بـه إلى خداع الذات self-deception ، وكل مشكلاته ستضغط عليـه أكـثر فاكثر فيمكث دائماً على هذه الحالـة وكأنـه في حالـة طـواريء لاتنتهـي . وكلها محتدم أوارها في ثنايا نفسه ، فإذا نظرنـا إلى حركاتـه ، مـن غـير أن نفهمها ، فأننا نراها حركات عشـوائية غـير هادفـة . وإنهـا سـتترك لدينـا الانطباع بأنها حركات ليست مصممة بإرادة سوية غايتها تحسـين موقفهـا أو تطوير موقعها . وهكذا تلبث حالـه يحـاول جـاهداً التنصـل مـن ظـرف كاتم، إذا به يقع في حبائل ظروف أعتى. كـل ذلـك لأنـه لم يسترشـد ، أو لأنه يستسلم إلى إيهام الذات بأنه الأقوى ؛ انه هكذا يبـدو في عـين نفسـه هو . وإذا هو أخفق في واقعه المهني أو الوظيفي مثلاً ، فأنه سـيعوض ذلـك بتحوله إلى متجبر متغطرس في وسطه الذي يعمـل فيـه فهـو بمسـلكه هـذا يخدرّ ذاته ؛ لكن مشاعر القصور عنـده باقيـه في أعمـاق نفسـه وفي مكانـه الذي نبتت فيه ونمت . إنها سـتبقى هنـاك ثاويـة في أعمـق أعمـاق مجـاري حياته النفسية : psychic life . ففي مثل هـذه الحالـة يمكننـا حقـاً أن نتكلم عن عقد نقص كائنة وقائمة.

وآن لنا الآن أنْ نذكر تعريفاً لعقدة النقص . إنّ عقدة النقـص تظهـر عادة عندما تبرز للفرد مشكلة معينة لا يكون الفرد مهيأً لها كمـا ينبغـي ، وعندها يعبر عن قناعتـه بعـدم إقتـداره علـى حلهـا . ومـن هـذا التعريـف المبسط نستطيع أن ندرك الغضب يعبّر عـن عقـدة النقـص بمقـدار مـا تعـبرّ الدموع والاعتذارات تماماً بتمام . وما دامت مشاعر النقص قائمـة دائمـاً في نفس الفرد وتتسبب بإثارة التوتر لديه ، فإن هنـاك دائمـاً في ثنايـا ذاتـه حركة تعويضية غايتها إيقاظ مشاعرمقابلة ترمي الى التفوق ؛ لكنها مشاعر لا تلبث طويلاً في توجهها نحو حل المشكلة التي يعانيها ، إنما هي ومضـات من التمني سرعان ما تخبو . فالتوجه المخبوء صوب تمنيات التفوق سيكون توجهاً صوب الجانب الخاسر من الحياة . إذ ستمكث المشكلة الحقيقـة ثمة منتصبة ، أو لعلها تكون مؤقتاً متنحية .

وعندئذ سيكون الفرد مهتماً بمحاولة تقليص مجـال نشـاطه وسـيكون أكثر إنشغالاً بكيفية تفادي ما من شأنه إيقاعه في شـراك الإنكسـار ، بـدلاً من الإقدام على محامد الإنتصار . فهو ،لذلك، يعطي لمن يلاحظ سلوكـه، صورة من التلكـؤ والتردد ، صورة تظهر بأنـه راكـد في مكانــه ، بـل أنـه يدبر هارباً أمام مشكلاته .

فمثل هذا الاتجاه يمكن بكل سهوله ملاحظتـه في حـالات الخُـواف[٤] من الأماكن المفتوحة . وهو رُهاب لا مبرر له من الناحية المنطقيـة . وهـذا العرض Symptom الرهابي يمثل تعبيراً عن اعتقاد متأصل في أبعـد أغـوار صاحبه وكأن ذاته في أعماقه تتحدث : (يجب عليّ ألا أذهب أبعد ممـا أنـا فيه الآن . يجب عليّ أن أبقى حيث أنا الآن في مجال الظـروف الـتي الفتهـا وأن لا أجازف فأخرج من دائرتها . الحياة تعجُّ بالمخـاطر فيجـب علـيّ أن أتجنب مجابهتها) . وحين يلازم هذا الاتجاه صاحبه بإسـتمرار ، فـإن الفـرد في هذه الحالة يزوي نفسه في غرفة واحدة ، أو أنه يرتمي علـى فراشـه فـلا

يبارحه . وابشع مظهر يتخذه التراجع أمام المشكلات هو الانتحار Suicide . و الانتحار دائماً يمثل أعنف تأنيب للذات وانتقاماً منها . ويمكننا أن نجد دائماً هناك ، في كل حالة من حالات الانتحار ، شخصاً ما، على عتبة داره يُلقي المنتحر مسؤولية إقدامه على الإنتحار . فالمنتحر يقدم على الإنتحار وهو يحمّل سواه أسباب فعلته . فكأنه يقول لغيره : (أنا كنت أرقّ الناس وأشدهم حساسية ، لكنك أو لكنكم عاملتموني بأقسى ضروب الوحشية).

كل عصابي يقيّد ، بشكل أو آخر ، مجال نشاطه ، ويحدد مقدار تواصله مع الموقف الذي هو فيه كله . فهو في الغالب ينكمش بعيداً عن الآخرين وعن النور و الحياة ، فيكون وكأنه أوصد بابه ضد الريح والهواء، لكنه في حقيقة الحال يكون قد أوصد أبواب ذاته ضد كل ما في الحياة فتقوقع . وإذا أتيح له شيء من أن يسيطر على من هم حواليه – كأفراد أسرته أو بعض زملائه – فإنه له أسلوبه الذي يعتمد : إما بالتخويف أو بالتأوهات الكاذبات الخادعات ، وطريقته هذه إنما تتوقف على ما مرّن عليه ذاته ودربها عليه فوجده في النهاية أنجح أسلوب لتحقيق غرضه Purpose . وغايته هي إنجاز هدفه في التفوق ، ولكن من غير نشاط ذاتي من جانبه يبذله لتحسين موقفه وتطويره إلى الأحسن. فالطفل الهيّاب الذي يشب متردداً فحينما يجد أنه يستطيع أن يفرض وجوده على والديه بالدموع و البكاء سينشأ طفلاً بكّاءاً ، وان الخط المباشر الذي سيتبعه في مسار تطوره سينتهي به من طفل صخّاب كثير البكاء إلى شخص كبير سوداوي [٥] Melancholiac المزاج و النزعة . إذ أن الدموع و الشكوى – وهما وسيلتان كنت قد أسميتهما : (الطاقة المائية) Water Power – هما سلاحان فتّاكان بمقدورهما تخريب كل تعاون وتهديم كل بناء وتحويل حالة الآخرين إلى خنوع واستخذاء . فلدى هذا الصنف من الناس العصابيين نلاحظ الخجل المكبّل ، و الارتباك المزعزع ، وعلى

السطح من ذلك كله تطفو عقدة النقص لديهم ، وانهم ما أسرع اعترافهم بواقع ضعفهم وعدم قدرتهم على تدبر أمورهم و العناية بأنفسهم. فالعجز سمة من سمات حياتهم . فذلك مالا يخفونه ولا ينكرونه. لكن ما يتكلمون عليه ويحاولون إخفاءه عن أنظار الآخرين هو هدفهم الطامح إلى السطوة و التفوق ، و توقانهم الجامح إلى الأولية في كل شيء ومهما كان الثمن باهظاً : تحقيق غاياتهم أهم شيء عندهم بصرف النظر عن الوسيلة .

إن ما يسمى بـ (عقدة أوديب) Oedipus Complex ، ليست في الواقع بأكثر من شيء مثله كمثلٍ (زريبة ضيقة) يزوي العصابي في أحد أركانها نفسه ، فيبقى متقرفصاً هناك . فإذا كان عصياً على فرد ما، أن ينطلق في ميدان المحبة و التواصل الفسيح في دنياه الرحيبة ، فلن يفلح في النهاية من تخليصٍ نفسه من ربقة هذه المشكلة . وذلك لأنه يبقى في قرارة نفسه متوجساً ، متردداً خشية ألاّ يتمكن من بسط سيطرته على غيره بطريقته التي يختارها لذاته والتي كان قد نشأ معتاداً عليها . وان ضحايا عقدة أوديب هم أطفال قد دللتهم أمهاتهم فأفسدت حياتهم منذ نعومة أظفارهم ؛ انهم أطفالٌ نشأوا مدللين وقد وَقَرَ في أذهانهم واستقرّ في نفوسهم بأن لهم حقوقاً وامتيازات يتفردون بها دون سواهم وأنها مضمونة لهم طوال حياتهم ، ينشأون وقد ترسخ في عقولهم أنهم لن يظفروا بالعطف والمحبة خارج حدود الأسرة وبعيداً عن سياج المنزل . وعندما يبلغون شرخ الشباب وحينما يصلون سن الرشد بحساب السنين ، لا بحساب النضج النفسي والاجتماعي ، فإنهم يبقون مشدودين إلى أذيال أمهاتهم كيوم كانوا في اللفافات رُضّعاً. وعندما يبلغون سن الزواج فإنهم لا يبحثون عن شريك [٦] حياة يساويهم في المشاعر الإنسانية ، بل إنهم يبحثون عن خادم مطيع مُسْتَعْبد . وربما نحن الكبار نتسبب في غرس عقدة أوديب في نفس الطفل. وكل ما يتطلبه الأمر منا ، مالم نتحفظ ، هو

أن تفسده أمه بالتدليل ، وترفض أن يوسع اهتمامه ويمده ليصله بغيرها من أناس آخرين ، فيلبث يدور حول ذاته وحول دائرة نفوذها الضيقة ، وما على الوالد في هذه الحالة السلبية كذلك ، إلا أن يكون لا أبالياً غير مكترث بابنه نسبياً ، أو أن يكون بارد العاطفة نحوه.

فهذه الصورة عن الإنكماش الإحجامي تكشف عن نفسها في جميع أنواع الأعراض Symptoms الخاصة بالعُصاب . ففي كلام الشخص المتلعثم Stammerer ، مثلاً، نستطيع أن نتبين إتجاهه المتردد المتهيب . لا شك أن بواقي مشاعره الإجتماعية تدفعه من داخله إلى إقامة علاقات مع زملائه ومع من يحيطون به ، غير أن فكرته المتدنية الكامنة فيه عن نفسه ، وخشيته الملازمة له باستمرار من أنه قد يفتضح عجزه وقصوره إذا وضع على محك الإختيار ، كل هذا يتصارع مع إحساسه الاجتماعي النازع إلى أن يكون كغيره من الآخرين ، فيؤدي به التصارع المحتوم هذا، إلى التردد في الكلام فتبدو عليه اللعثمة . وما أكثر الأفراد الذين هم في حالات على هذا المنوال . فثمة نماذج على ذلك كثيرة . من ذلك مثلاً ، أطفال المدارس المتخلفون في دراستهم ، والذين يبلغون سن الشباب أو يتجاوزونها قليلاً من الرجال والنساء فلا يجدون مهنة يستقرون عليها ، أو هم ممن أرجأوا الزواج فتأخروا فيه وعدوه مشكلة ، ومن هذه الفئة يمكن أن نذكر أيضاً الفصاميين القهريين Compulsion Neurotics وهم فئة من الناس يعيدون تكرار العمل نفسه مرة تلو المرة بلا مبرر ، وهم يعرفون ذلك لكنهم لا يستطيعون التخلص من هذه العادة المستحكمة والمتحكمة فيهم ، ومن هذه النماذج كذلك الأفراد الأرقون [٩] Insomniacs الذين يأرقون ليلهم كلّه أو جلّه يفكرون توجساً بما عملوه خلال يومهم الفائت فهؤلاء كافة يكشفون عن عقدة نقص تحول بينهم وبين تقدمهم في الحياة والتصدي لحل مشكلاتها.

وكنا قد ذكرنا من قبل أن مشاعر النقص ليست هي في حد ذاتها تعد شذوذاً لا غناء فيه . فهي كلها ، إذا ما أحسن استخدامها ، تعتبر من أسباب كل ما طرأ من تطور في مكانة الإنسان ووضعه عبر التاريخ . فالعلم نفسه ، مثلاً ، يمكن أن ينهض فقط عندما يحسب الانسان أنه جاهل، وأن ثمة أموراً عليه أن يتعلمها ، وأن عليه أن يطرد عنه الظلام ، وأنه بحاجة إلى تبصر بالمستقبل : إنه – أي العلم – نتيجة جهود مضنية قدمها الجنس البشري ليرفع من مستوى واقعه الذي كان فيه ، وذلك لكي يدرك أكثر ولكي يتعرف على ما في هذا الكون ليتمكن في المآل من التحكم بظروفه في سباق ما هو فيه من مجال . والحق ، يبدو لي أن حضارتنا الإنسانية كلها قائمة على مشاعر الإحساس بالنقص . إذا كان بمقدورنا أن نتخيل زائراً قادماً من كوكب آخر جاء ليرقب بعين التجرد كوكبنا وما نحن عليه من حضارة ، فإنه سيخلص ، بلا شك ، إلى قناعة فيقول في ذات نفسه (أن هذه الكائنات البشرية وأن هؤلاء الناس في كل ما هم فيه من إرتباطات علائقية ، وكل ما لديهم من كيانات مؤسسية ، وكل ما أنفقوا من جهود لضمان الأمن والأمان لأنفسهم ، وكل ما ابتنوه من سقوف لبيوتهم لدرء المطر ، وكل هذه الملابس التي يرتدونها لإتقاء البرد والمحافظة على دفء أجسادهم ، وكل ما عبّدوه من شوارع وطرقات لتيسير ما هم عليه من حركة وتنقلات كل هذه لتدل بوضوح على أن هؤلاء الناس يشعرون في قرارة أنفسهم أنهم أضعف ما على الأرض قاطبة) . وهذه حقيقة لا تدحض . وذلك لأنه على نحو أو آخر فإن الإنسان أضعف من كثير من المخلوقات على سطح هذا الكوكب. فنحن البشر ليست لدينا القوة التي يمتلكها الأسد مثلاً أو الغوريلا ، وأن هناك كثيرا من الحيوانات مستعدة على نحو أفضل ومهيأة بشكل أكمل لمواجهة مصاعب الحياة بذاتها دونما عون مباشر من أحد – فهي مخلوقات تكّون إرتباطاتها فيما بينها ، فتؤلف قطعاناً يساند بعضها بعضاً ، لكن البشر بحاجة ملحاح أكثر من سائر المخلوقات والكائنات الأخرى ،

تقتضيهم التقارب و الالتفاف حول بعضهم لدرء ما يحدق بهم من أخطار ولضمان بقائهم مستمراً على وجه الأرض . الكائن الإنساني بوجه خاص يبقى ضعيفاً أيام طفولته كلها ، فيلبث محتاجاً إلى الحماية و الرعاية عدداً من السنين طوالاً . وما دام الإنسان يدرك بأن طفولته أطول طفولة على وجه الأرض ، وانه إبان طفولته الممتدة تلك هو أضعف مخلوق ، وما دام يدرك بأنه من غير تكافل وتضافر و تعاون يكون دائماً واقعاً تحت رحمة البيئة و الظروف ، يتسنى لنا أن نفهم ، إذن ، لماذا ينساق أحياناً إلى النزعة التشاؤمية Pessimism ، الأمر الذي يحمله على الاعتقاد بأن كفة الشر و الشقاء أرجح ، في هذا العالم ، من كفة الخير و الهناء ، يترتب على هذا كله أن تنغرس في ذهنه وفي نفسه عقدة القصور . ومن هنا أيضاً نفهم إن الحياة لا تكف عن تتالي مشكلاتها التي تواجه الفرد في أية زاوية من زوايا كفاحه فيها . وما من فرد سيجد نفسه دائماً بمنجاة من مجابهة شيء من العقبات و المشكلات ، وما من فرد يجب أن يطمح إلى موقف حقق فيه كل هدف إليه يتوق وبه يكون قد نال مأربه من السيادة و التفوق . لكن هذا لا ينبغي أن يفتّ في عضدنا . لذ يخلق بنا أن نسعى دائماً إلى تلمس الحل لما يجابهنا ، ويجدر بنا ألا نخلد قانعين بما أنجزنا ، وانه ليتعين علينا أن نوطّن أنفسنا على حقيقة أن كفاحنا في هذه الحياة لن ينتهي ما دامت الحياة ، لأن دينامية العمل و النشاط من متممات طبيعة الحياة .

ما من إنسان ، كما أحسب ، سيتبرم ويقلق نفسه فوق طاقتها حينما يدرك حقيقة لا غبار عليها ألا وهي أننا لا نستطيع بحال ، وفي خاتمة المطاف ، أن نبلغ أرقى الغايات في هذه الحياة . وإذا كان في طوقنا أن نتصور فرداً واحداً ، أو أيّاً من البشرية كلها ، بلغ موقعاً وكان وصل إليه من غير عناء ولا شقاء ، فما علينا إذن إلا أن نعتقد بأن الحياة ، في تلك الظروف و الحالات ، لم تكن إلاّ متبلدة مملة . فهذا يحفزنا إلى أن ننظر إلى

كل شيء ونتوقعه بتحسب مرتقب . إن اهتمامنا بالحياة أنّما يتأتى في الأساس مما نبحث عنه من يقين . فلو كنا من كل شيء متيقنين ، ولو كنا بكل شيء مسبقاً عارفين ، لما وجدت هناك مناقشات ، ولما حصلت ثمة إكتشافات ، بل وأكثر من ذلك لانتهى العلم وخُتمت نهايته . ولأصبح هذا الكون ليس أكثر من حكاية مكررة يعاد سردها للتسلي وحتى الدين و الفن ، وهما اللذان يبهجان أرواحنا ، وينعشان خيالنا – يفرغان من محتويات معناهما ومعانيهما لو كنا قبلاً بكل ما في هذا العالم عارفين ولأسراره مدركين . ولنعلم أنه لمن يُمن طالعنا وحُسن حظنا ألا يكون كل ما نريد في هذه الحياة مُستوْفى بالسهولة المتوقعة . فمن شأن ذلك أن يجعلنا دائماً متوفزين لمآتي الحياة ومتأهبين لمخبآتها الخافيات ، وهذا يجعل الفرد [١٠] مؤهلاً لأن يخطو إلى أمام بشجاعة وثبات وهو موقن بقدرته على حل مشكلاته وفقاً لما تتطلبه المشاعر الإجتماعية .

هدف مركّب الإستعلاء ، و التفوق ، و المغالاة في ذلك ، إنما هو مسألة شخصية وفريدة في بابها عند كل فرد . فهدفه هذا يتوقف على فهمه للحياة ، وهذا المعنى ليس مسألة ألفاظ يطلقها من بين شفتيه . فهذا المعنى الذي يتبناه وينسج على منواله يكون جزءاً لا يتجزأ من بنية تكوينه الذاتي فيكون له أسلوب حياة يرافقه طوال عمره ، فيغدو أشبه بلحن غريب إستحدثه من إبداعه هو ومن إبتداعه . وهو يعبر عن ذلك بصورة غامضة بحيث لا يمكننا أن نحرز بسهولة مراميه إلا من خلال ما توحي به حركاته وإشاراته من دلالات . ذلك أن فهم أسلوب حياة شخص معين أشبه بفهم قصيدة ينظمها شاعر . فالشاعر يستخدم كلمات ، بيد أن المعنى الذي يرمي إليه أبعد من تلك الكلمات المسطورات على الورق أو المنطوقات . وان الجزء الأعظم مما يتوخاه من معنى يجب أن يتم التوصل إليه بالحدس و التخمين ، إذ يتعين علينا أن نقرأ ما بين السطور . وهكذا ، أيضاً ، هي الحال بالنسبة لأبعد أغوار ما يتوق إليه الفرد من انتهاج

لأسلوب حياة يرتضيه . وما على المختص بعلم النفس إلاّ أن يتعلم كيف يقرأ ما بين السطور ، يجب عليه أن يتعلم فن إدراك معاني الحياة - Life Meanings .

فمعنى الحياة يتم إدراكه وإضماره في ثنايا الذات خلال الأربع أو الخمس الأولى من السنوات . فالطفل يتلمس طريقه وسط ما تعجّ به بيئته حتى يثبت مرسى قاربه على ما أثر فيه وفي نفسه أكثر . وكذلك هي مسألة التفوق وما يتوق إليه الفرد . فهو يسعى ويجتهد ، ولكل امرئٍ هدف يرمي إليه ومنهج يتبعه لتحقيق أمانيه في التفوق .

لذلك يختلف الموقف من فرد إلى فرد ، كما هي الحال في اختلاف الأفراد فيما بينهم . وهذا يلزمنا بالنظر و التأمل فيما تحت السطح ، وان نحتسب لما وراء ظواهر الأشياء . فالفرد قد يغير من طريقته لبلوغ هدفه المحدد ، كما قد يغير من أساليب تعبيره عن مقاصده في نيل ذلك الهدف، وكذا الحال بالنسبة إلى تغيير مهنته ومنهجه . فينبغي إذن أن ينظر إلى خفايا الظواهر ، وان نتأمل في وحدة الشخصية كوحدة وما عسى أن يكون خافياً وراءها . ووحدة الشخصية هذه تكون مثبتة وثابتة في كل ما يصدر عنها من تعبيرات ولمحات وإشارات . فلو أخذنا مثلثاً غير منتظم ، مثلاً ، وثبتناه بأوضاع مختلفة . فإنه في كل وضع يتخذه سيبدو لنا وكأنه مثلث مختلف تماماً عن المثلث الأصلي ، ولكن عندما نمعن النظر متروين فسنتبين أن المثلث دائماً هو نفس المثلث وليس سواه . فكذلك ، أيضاً ، هي الحال مع الطراز البدئي [11] Prototype ، إذ أن محتواه ومؤداه لا يستوفى من خلال تعبير منفرد واحد ، ولا نستطيع تمييزه من مجرد استجابة عابرة ، وإنما لا بد من ملاحظة كامل إفصاحه عن ذاته التعبيرية بصورته المتكاملة . فليس بمقدورنا قط أن نقول لإنسان معين : (إن اجتهادك باتجاه إحراز التفوق سيكون كافياً وافياً إذا فعلت كذا

وكـــــذا ....) وهذا معناه أن الكفاح بإتجاه الظفر بالتفوق لا يصب في قالب جامد، وإنما هو يبقى في مختلف ميادينه مرناً ، و الحق ، انه كلما كان الفرد أوفر صحة ، وأتم عافية ، وأكثر سوية ، كان حظه من إحراز قصب الرهان ، و الظفر بالتفوق أكبر ، ذلك لأنه بحكم مرونته سيبتكر منافذ نحو التفوق [١٢] جديدة ، حيث أن فرداً كهذا سيكون عن الجمود بمنأى . وان الإنسان العصابي فقط ، هو الذي يستشعر الجمود ، وهو يتوجه بصعوبة صوب هدفه المحدد ، وفي داخله صوت يناديه : (يجب أن أظفر بهذا ، وإلاّ فلا) . فهذا هو الجمود [١٣] القتال بعينه .

لا ينبغي لنا هنا أن نسوق تعميمات جارفة . وثمة ما تنبغي معرفته ألا وهو أنّ هناك عاملاً عاماً – أعنى به أن كل فرد يتوق إلى أن يكون ملاكاً أو بمظهر الملاك في الأقل . وتحقيق الهدف هو أمنية الجميع . ولكل إمرئ همومه وشكواه . وكل فرد يعتقد انه سوي وأن مشكلته مبعثها ممن هم حوله ، وليست من عصابيته أو عقدّته ناشئة . وليس بوسعي المقال في هذا المجال ، أنا إذ أذكر اكثر مما قاله نيتشه ، حينما أصيب عقله بلوثة وقد جُنّ ، فأرسل إلى سترند بيرد رسالة وصف فيها نفسه : (الصليب) . فهذا هو شأنه ، كما ظن ، في إظهار سامق تفوقه .وثمة من يَسِمُ ذاته بأنه (نابليون) ، أو أنه (امبراطور الصين) !

ما إن يستنجز هدف التفوق و يتحقق ، حتى تزول الأخطاء التي ارتكبت ، فلا تعود قائمة في منهج أسلوب الحياة . فذلك كفيل بأن يستطيع تصحيح وضع الفرد . إذ تصبح العادات Habits و الأعراض Symptoms مرتبة على مسارها القويم والسليم . فكل طفل مشكل ، وكل فرد عصابي ، وكل مدمن ، وكل مجرم ، يتوجه ، بوازع من إيجانه الذاتي الذي يراه ، إلى تحقيق التفوق ولكن بطريقته الخاصة . فالتصرف الصبياني يكاد يكون وراء كل من يسعى إلى تحقيق هدف التفوق بإتباع ما

يخالف المألوف . هذا تلميذ مدرسة ، كان أكسل تلميذ في صفه ، فسأله معلمه : (لماذا أنت بهذا التدني وبهذه الرداءة في عملك المدرسي؟) . فرد على معلمه بالقول : (إذا صرت أكسل تلميذ هنا في الصف ، فانك ستكون دائم الانشغال بي ، فتوجه جُل عنايتك نحوي . أنت لا تعير كبير انتباه إلى التلاميذ الجيدين في دروسهم ، ممن لا يزعجون جو الصف والذين هم يؤدون واجباتهم بإنتظام) . فهو لكي يجعل نفسه في بؤرة الإنتباه ومركز الإهتمام ، ولكي يتحكم في معلمه ، وجد العبث في الصف والتكاسل في الدرس أفضل وسيلة يصل بها إلى مبتغاه . وهو ، أيضاً ، احتاج إلى الكسل واتخذه سبيلاً لبلوغ هدفه الذي أراد ، ولكن على وفق طريقته الخاصة به .

العلاج المتبع في مواجهة مثل هذه الأمور ، حتى يومنا هذا هو التصدي للعرضٍ الظاهري . وعلى مثل هذا الاتجاه يعترض علم النفس الفردي إعتراضاً لا لبس فيه ، من الناحيتين الطبية النفسية و التعليمية التربوية فإذا كان التلميذ متأخراً في الحساب ، مثلاً ، أو بقية التقارير المقدمة عنه ، لا ينفع شيئاً أن نذكر اهتمامنا على هذين الجانبين محاولين تحسين وضعه فيهما . فربما يكون تأخره متأتياً من رغبته في إقلاق معلمه، بل لعله يريد أن يتخلص من المدرسة كلها فيلجأ إلى أسلوبه هذا من أجل أن يطرد من جوها . فاذا نحن تحريناه من زاوية معينة ، فلا تعييه الحيلة في أن يجد لنفسه مهرباً من منفذ آخر ليحقق هدفه . وهذه تماماً هي نفس الحالة ، مع الشخص العصابي الكبيرٍ . افرض أنه يعاني من الصداع النصفي (الشقيقة) Migraine ، مثلاً ، فإن هذه الصداعات الخاصة به وحده يمكن أن تكون جد نافعة له ومجدية لغرضه ، وانها صداعات قد تواتيه أي وقت يشاء وفي اللحظة المواتية التي يكون هو بأمس الحاجة اليها. فهو عن طريق صداعاته هذه يمكنه أن يتهرب من حل مشكلاته التي تجابهه في المجتمع ، وبما هي تواتيه عندما تجدّ ضرورة تستدعي التقاءه بأناس

جدد لا يرغب في ملاقاتهم ، أو حينما يتطلب الأمر منه إتخاذ قرار معين. فهي صداعات يمكنها أن تسعفه عندما يريد أن يتجبر على مرؤوسيه التابعين له في المؤسسة التي يعمل فيها ، أو حينما يريد أن يفرض سطوته على زوجته أو أسرته ككل . فلماذا نتوقع نحن منه ، ان يتخلى عن أداة مجربة كهذه خبرها فوجدها ناجحة ؟ ذلك لأن الألم الذي يمنحه لنفسه من وجهة نظره التي هو عليها وكما يمارسها ، لهو خير إستثمار يمتلكه ، فلا ينوي التفريط به ، إذ أنه يعود عليه بكل العوائد التي يصبو اليها . ولا شك أننا نثير في نفسه الفزع إذا نحن قدمنا له إيضاحات كهذه ، ونكون قد أخفناه بأعراضه الكامنة فيه إذا أقدمنا على ذلك . وان العلاج الطبي ربما يتخفق من معاناته ويقلل من حدة آلامه ، وقد يجعل العلاج معاودة مصاعبه مستبعدة بعض الشيء ولو إلى حين . فهو علاج قد يشفيه من استمرار أعراضه ويعفيه من بعض آلامها النفسية . ولكن بما أن هدفه الذي أمرض نفسه من أجله يبقى هو هو لا يتغير ، فالموضوع لا شك يتداخل . فهو إذا جانب عرضاً معيناً ، فلن تنقصه الحيلة في إيجاد عرض غيره يتمترس خلفه . فاذا شُفِيَ من صداعاته ، فإنه سيستحدث لنفسه الأرق ، أو لعله يبتدع عرضاً جديداً طازجاً . انه لأمر مألوف ان تجد العصابيين ما ان يسقطوا من حسابهم أعراضاً بسرعة لافتة للنظر ، حتى يلتقطوا أعراضاً سواها وسرعان ما يفعلون ذلك . ان ما يجب ان نتقصاه دائماً ، في حالات كهذه ، هو الغرض الذي احتضنه المريض وتبناه ومن أجله تحصّن بذلك العرض ، وان نتعقب هذا الغرض واتساقه والتصاقه بالهدف العام الرامي إلى الأعلوية التفوقية .

ولأضرب مثلاً على ذلك امرأة في الثلاثين من عمرها جاءتني إلى العيادة تشكو من قلق ومن عجزها عن إقامة علاقات وتكوين صداقات . ولم تتمكن من ان تتقدم في مهنتها وانها نتيجة لذلك بقيت عالة على أسرتها . فكانت تتنقل من عمل إلى آخر بدون استقرار في أي عمل معين.

وذكرت انها كانت تتلقى علاجاً سيكولوجياً لمدة ثمانية أعوام كما أظن ، لكن العلاج لم يفلح معها في جعلها إجتماعية تـألف وتؤلف ، ولم يستطيع تحويلها إلى حالة من الاستقرار في سبيل الكسب في وظيفة محددة .

وعندما قابلتها في العيادة النفسية تتبعت ماضي حياتها إلى الأيام الأولى من طفولتها ، لأتبين أسلوب سلوكها ونشاطها في بواكير أيامها . وفي اعتقادي أنه ليس بمقدور أحد أن يفهم ما يمكن أن يكون عليه الشخص الكبير ما لم يتفهم وضع الطفل الصغير . وهذه المرأة كانت في أيام طفولتها مدللة من أمها . إذ كانت أصغر أفراد اسرتها ، وكانت جد جميلة ، فأفسدها أبواها بالتدليل ، ولا سيما أمها . وكل واحد كان يناديها: (يا أميرة) . ولما كانت تختلط بأقرانها وأترابها من الجنسين لتلعب معهم كانوا يرونها متميزة . وقد أخذوا من بعد ، يقولون : (جاءت الساحرة) Witch . وهذه الكلمة أفزعتني وملأتني رعباً في كل كياني .

فسألت إمرأة مسنة كانت تسكن معهم في نفس البيت : (هل توجد حقاً ساحرة ؟) اجابتها تلك المرأة : (نعم ، توجد ساحرات ، ويوجد لصوص ، ويوجد سرّاقون ، وأنهم كلهم سيلاحقونك أينما ذهبتِ) . لقد غرس هذا الكلام في ذاتها الذعر . فكانت أخوف ما تكون عندما تخرج خارج المنزل أو عندما تكون بمفردها . ولما نَهدت وصارت قبّاء [١٥] تعرضت لمضايقات من أناس من الجنس الآخر ، ضاعفت من مخاوفها مما زاد حالتها ضغثاً على إبالة . لذلك تسأسأت [١٦] الأمور عليها وأختلطت ، فما عادت تميز بين الغث منها و السمين . فأعتقدت أن تفوقها وسر سيادتها في الحياة يكمنان في تخوفها من كل شيء ، والتشكيك بكل شخص وبكل شيء وعدم الإستقرار على أي شيء . فغدت نافرة ، هائجة ، خائفة ، هاربة من كل مكان ، فلا يقرّ لها قرار .

وكـان مـن أمـر هـذه الفتـاة ان كـانت دائمـة الهـروب و التهـرب ، والتنقل من مكان إلى مكان . لأنها في قرارة نفسها غير مستقرة وكـانت تظن وملازمتها مكانـاً واحـداً يضـرّ بأمانهـا . بقيـت هـذه حالتهـا ، حتـى كادت أسرتها تضيق بها . لولا شيء من تصابرهم وتصـابر بعـض أقاربهـا عليهـا . فلـو حـدث ان تخلـوا عنهـا لكـان مصيرهـا إلى الجنـون . لكـن إصطبـارهم علـى ملالتهـا وعـدم استقرارها ، انقذهـا مـن أن تهـوي في ظلمات الجنون . ولحسن حظها أن أسرتها كانت ميسورة الحال مما وفرّ لها عوناً تتكيء عليه وتستند اليه .

وهنا أذكر حالة أخرى تلتقي فيهـا عقدتـا النقـص و التفـوق في بنيـة نفس الشخص . جـيء اليّ بفتـاة في السادسـة عشـرة مـن عمرهـا . فهـذه الفتاة اعتادت ان تسرق عندما كانت في سـن السادسـة مـن العمـر . ولـما نشأت أكثر راحت تتشرد في الليالي . اساس مشكلتها انها جاءت إلى هذا العالم فوجدت الخصـام مسـتقراً بـين أبويهـا قبـل ولادتهـا . فلمـا ولـدت إجتوتها [١٧] أمها وتمنت لو لم تولد . بعد ولادتهـا بعـامين افـترق الأبـوان بالطلاق وانفصلا . عاشت هي و أمها مع جدتها لأمهـا . الجـدة أفسـدت الطفلة بالدلال و الحماية المفرطة . ولما انغمرت في حمـأة السـرقة ومسـاقط التشرد ، سألتها : (لماذا كل هذا ؟) اجابت بانها كانت تكره كـل ذلـك لكنها ارادت ان تثبت لأمهـا بأن لا سـيطرة لهـا عليهـا . فلمـا سألتهـا : (قمت بهذا انتقاماً من أمك ؟) أجابت أنْ : (نعم). كانت تلـك البنـت تشعر بأن أمها تكرهها فأحست ازاء ذلك بعقدة نقص وقصور . والطريقة الوحيدة التي اعتقدت انها تؤكد فيها تفوقها ، هي بأن تتمرد وان تتسـبب في حشد المزعجات وجمع المنغصات .

وهذه حالة أخرى تخص فتاة في الخامسة عشرة من عمرها . إختفـت لمدة ثمانية أيـام بلياليهـا ، ولمـا عـثر عليهـا أحيلـت إلى محكمـة الأحـداث .

أحالتها المحكمة إلى طبيب ، لكنها ثارت في وجهه ولطمته على خديه . أحيلت اليّ فأخذت الاطفها بتودد حتى أنست وجودي لديها . سألتها أن تقص عليّ حلماً رأته قريباً ، فكان : (رأيتني في الأماكن التي يلجأ اليها المتشردون ، وبعد أن خرجت من عندهم رأيت أمي . وسرعان ما رأيت أبي قادماً ، فما كان مني الاَ أن طلبت من أمي ان تخبئني ، بحيث لا يراني أبي). من حلمها هذا يتضح ان والدها كان يخيفها بالفعل وكان يضربها . وكانت تكذب . فارادت ان تنتقم وارادت أن تحقق تفوقها بطريقة ملتوية وان تجلب الانتباه إلى ذاتها بتلك الأساليب العرجاء . ارادت أن تنتقم لذاتها بواسطة ايذاء والدها الذي كان دائماً يؤذيها بالضرب و القهر .

فكيف بالناس الذين ضلوا سواء السبيل إلى التفوق يمكن ان يُنْتَشلوا من ضلالهم و يُقدّم لهم العون ؟ إنه ليس بالأمر العسير إذا ما أدركنا أن التفوق و السعي اليه أمنية كل إنسان وهو في حقيقة الحال هاجس بين البشر كافة شائع . بمقدورنا ، اذن ، ان نضع أنفسنا في مواقفهم وأن نتعاطف معهم في كفاحهم في أن جهادهم واجتهاهم يكون قد زاغ عن الجانب القويم في معترك الحياة . فلا يمكن أن ننكر على الفرد ، أو نستنكر عليه سعيه تجاه التفوق في الحياة . ذلك لأن الكفاح الجاد الذي يقوم به المرء بشكل مشروع من أجل التفوق هو الذي يكمن وراء الإبداع ، وأنه مصدر جميع الإسهامات الرائعة التي خدمت حضارتنا الإنسانية . وحياة الإنسان بأكملها إنما تتقدم وفق هذا النهج العظيم من العمل القويم – أعني بذلك السير من أدنى إلى أعلى ، ومن النقص إلى التكامل ، ومن الإندحار إلى الإنتصار . وان الذين باستطاعتهم شق طريقهم على هذه الصورة هم فقط أولئك الذين يدركون هذه المعاني حق إدراكها : أولئك الذين يدور في خلدهم إثراء حياة الآخرين وإغناء معالم الحياة . فإذا نحن توجهنا نحو الآخرين وفق الأسلوب السليم ، فلن نواجه صعوبة تذكر في حملهم على الإقتناع بما نريد . فالغاية مشتركة بين جميع

الناس : وكل ما ننشده من سلوك ، وما نتطلع اليه من مثل عليا ، وما نصبو اليه من أهداف ، وما نرمي اليه من انشطة ومن أخلاق مرتجاة ، كل أولئك نتوخاها من البشر ، لا لشيء ذاتي يخص أي واحد منا وحده منفرداً ، وانما ليكون رائد الجميع التعاون و التكافل وذلك لصالح الفرد والجميع . وانك لن تجد أبداً إنساناً خاوياً تماماً من الحس الإجتماعي . وحتى الشخص العصابي ، و المجرم العادي ، يعرفان هذا السر الواضح المفتوح . غير أن مشكلتهما تكمن في خطأ أسلوب الحياة الذي هوى في مصائده كل منهما . ففي جوف كل منهما صوت عقدة نقص تهمس في اعماقهما قائلة لهما :

(ان النجاح في التعاون ليس من ثوبيكما) . فأنكفئا على ذاتيهما هرباً من مشاكل الحياة الحقيقية ، وأنغمسا في معارك جانبية لتأكيد ذاتيهما واثبات قوتهما ، لكنهما في واقع الأمر ضلا سواء السبيل وصرفا عن حقائق الحياة .

فتضافر الخناصر بين أبناء البشر ينطوي دون ادنى ريب على عدد من الفضائل جم . ولكل منا نحن البشر توجهات وحالات نفسية ، ومشاعر حسية ومعنوية ، منها المرضية ، ومنها السوية . ولكل فئة أفكار استفرغت آراءهم ، واستغرقت أوقاتهم ، وأستنفدت أعمارهم .

هوامش الفصل الثالث

١- علم النفس الفردي عند الفرد أدلر يمثل نظرية قال بها وقد اتبعها من حيث التطبيق كثير من المختصين بعلم النفس . وملخص النظرية ان لكل شخص صياغة فريدة ، وله من الدوافع والسمات والاهتمامات والقيم ، وان كل فعل يصدر عن الشخص يحمل أسلوبه الخاص المتميز في الحياة .

(المترجم)

٢- استخدم المؤلف كلمة Hypnotize ومعناه الدقيق و الحقيقي : التنويم المغناطيسي ، وفي هذا الموقع لا تتفق والمعنى الذي أراده المؤلف ، وانما استخدمها مجازاً ، ولذلك ترجمتها كما في المتن وهو الأوفق .

(المترجم)

٣- استخدم المؤلف كلمة Auto - Intoxicate .

(المترجم)

٤- الخواف Agoraphobia : أو الخوف المرضي وغير الطبيعي من الأماكن الفسيحة كالميادين العامة و الصحارى .

(المترجم)

٥- المنخوليا ، و المنخولي (وهي الصفة من منخوليا): وتسمى الكآبة الحادة احياناً . حالة مرضية نفسية تتسم بالاكتئاب المصحوب بوظائف حركية كاسدة وبهياج شديد وعربدة فجة عند الاستثارة .

(المترجم)

٦-شريك على وزن فعيل يتساوى فيه المذكر و المؤنث . ثم ان العصاب يصيب الجنسين لذلك فالعصابي يبحث عن شريكة حياة ، وكذلك العصابية . (المترجم)

٧- التلعثم و اللعثمة : اضطراب في النطق ، وتردد لا ارادي في الكلام و التحدث ، سببه نفسي في الغالب واسبابه كثيرة .

(المترجم)

٨- القهر بمعناه الإصطلاحي النفسي قوة داخلية عند بعض الأفراد لا تقاوم ، تجبر الشخص المبتلي بها على القيام بعمل ضد إرادته ، كما لو كان هناك داخل الشخص شخص ثانٍ يأمره فيطيع .

(المترجم)

٩- الأَرَق قد يكون استجابة مؤقتة لإثارة أو لإضطراب إنفعالي لدى شخص معين ، ولعله يكون سمة له نتيجة لخوف ، أو تطير ، أو شعور بالذنب ، أو احساس بالنقص .... الخ .

(المترجم)

١٠- لا عجب إذا ما وجدنا المؤلف يكرر كلمة (الفرد) ، ذلك لأنه صاحب مدرسة علم النفس الفردي ، وقد اشرنا إلى ذلك من قبل .

(المترجم)

١١- الطراز البدئي ، يقصد به الشكل الأبكر للكائن العضوي أو لعضو معين منه ، كما يراد به النموذج الأصلي للإستجابة .

(المترجم)

١٢- يستخدم المؤلف كلمتي Supremacy و Superiority ، ويريد بهما الترادف في المعنى ، لأن اللفظتين تتقاربان في معناهما القاموسي كما يوضح ذلك قاموس اكسفورد الموسع ، واحياناً مختلفان من حيث التفصيلات . (المترجم)

١٣- يتحدث المؤلف عن الجمود و المرونة ، ويرمي في ذلك إلى الجانب التشخيصي . فالمرونة من سمات الشخص السوي ، و الجمود يستدل منه عل الحالة العصابية . (المترجم)

١٤- هذا النمط من البشر ، ال جانب أعراضهم وأمراضهم النفسية ، تتحكم فيهم أمزجتهم القلّب ، وماضي تجاربهم وخبراتهم الطفولية .
(المترجم)

١٥- نهدت الفتاة فهي ناهد ومثلها قباء : أي بلغت وارتفع نهداها، وجمعها نواهد وناهدات ، وقباء جمعها قب الصدور : مرتفعات الصدور .
(المترجم)

١٦- يقال تسأسأت الأمور وتشأشأت إذا اختلفت واختلطت فلا يعود التمييز بينها سهلاً . (المترجم)

١٧- يقال إجتواه : أي كرهه .

(المترجم)

١٨- استخدم المؤلف كلمتي Minus and Plus ، لكنهما في ترجمتهما الحرفية لا يؤديان أبداً إلى المعنى المستراد في الكتاب ، لذلك ترجمتهما كما ورد معناهما المثبت سابقاً . (المترجم)

الفصل الرابـع

بـواكير الذكريات وآثارها الباقيات

لما كان المرء بجدّ بلا كلل ليظفر بفرصة مؤاتية ، هو المفتاح لشخصيته كلها ، فإننا سنجد المفتاح هذا كائناً في كل ملتقى من تكوين حياته النفسية Psychic . وأن فهم هذه الحقيقة وادراكها حق الادراك يجعل في متناول أيدينا أداتين فعّالتين تمكنان من تفهم ما للفرد من أسلوب في حياته يتبعه . أولى هاتين الأداتين ، هي ان نتمعن بكل ما يصدر عن الفرد من تعابير ، وفي أي اتجاه تكون موجهة أو تسير - فلن تعدو تلك التعابير الا ان تكون نابعة من دافع وحيد ، من تنغيم منفرد ، حوله تتمحور الشخصية وفي نطاقه يُستكمل بناؤها . وثانية تينك الأداتين ، هي أننا يتهيأ لنا خزين هائل من المادة المعرفية ، بها نتمكن من استقراء ما يكدّ الفرد في سبيله لإثبات وجوده و الإفصاح عن جوهر كينونته . فكل لفظة تندُّ عنه ، وكل إحساس يستشعره ، وكل فكرة تنبض بالإفصاح ، وكل اشارة يأتيها ، إنما هي أمارات لها من ورائها بواعثها القابعة في طوايا صاحبها مما يمكننا من الإدراك ، ومغزى ما تلمع اليه .

وأي خطأ متعجل يصدر عنا في الحكم على السلوك التعبيري الصادر عن الفرد ، في المستطاع تصويبه على الفور بألف وسيلة تتكيء إلى دفائن

الشخصية التي لا يسبر غورها بالحكم السطحي . فلا ينبغي لنا ان نبني حكمنا عن هنة عابرة بمفردها وبمعزل عن التركيب الكلي للذات الإنسانية ؛ بل يجدر بنا أن نقيم أحكامنا على التصور الكلي المتكامل لبنية الفرد . مثلنا في هذا مثل علماء الآثار Archaeologisti الذين ينقبّون عما طمرته عوادي الزمان فيجدون شظايا آنية خزفية ، وآلات و أدوات ، وجُذُراً [1] متداعية من أبنية منهارة ، ومومياوات[2] مهشمة ، وأوراقاً من البردى ، ومن هذه المخلفات و العدمليات [3] يمضون قدماً في استخلاص واستنباط حياة مدنية باكملها كانت قد أضمحلّت وعفّى عليها الزمن . هذا بالنسبة لعوادي الأيام وما عساها أن تفعله بالجمادات. أما بالنسبة لشخصية الإنسان فانها أمامنا منتصبة وبأستمراريتها الحية توحي ألينا بما تخفي وراءها من مكامن تستحق البحث و التأويل .

انه ليس بالأمر السهل أن تفهم بسرعة الكائن البشري . ولعل علم النفس الفردي أصعب فروع علم النفس لأن تتعلمه وتمارسه . فهو لاشك أصعبها تعلماً وتطبيقاً . إذ من العسير أن نأخذ الأمور بأجزائها ، فلا مندوحة من ان نصغي دائماً للأنغام الجسمية ، متناغمة مجتمعه . وينبغي أن نتحفظ من القناعة الساذجة حتى يكون في قبضتنا البرهان المبين فنقطع الشك باليقين . يتعين علينا ان نستكمل لمحات من حشد متيسر ومتاح من الإشارات ومن ذلك مثلاً – الطريقة التي يدخل فيها الشخص علينا الغرفة، الطريقة التي يحيينا بها ، الطريقة التي يبتسم بها الفرد ، الطريقة التي يمشي بها ويتحرك . فاذا اخطأنا الحكم في واحدة من تلك فلن يجانبنا الصواب في سائر التعابير و التعبيرات و الحركات . وان علاجنا يفلح وينجح إذا نحن ركزنا إهتمامنا على الآخرين . يجب أن تكون لنا القدرة على ان نرى بعينيه وان نسمع بأذنيه . وهو ، من ناحيته ، يجب ان يكون إيجابياً مع المعالج . وعلينا من جهتنا أن نتفهمه من خلال إتجاهاته كلها

ومن ثنايا مشكلاته برمتها . فالفهم الناقص يفضي الى فهم للمريض ناقص، وربما تكون هذه هي العلة وراء ما تسميه بعض مدارس علم النفس : (الطرح السلبي و الإيجابي) [٤] Negative and Positive Transferance في أساليب العلاج التي تنتهجها . مهمتنا العلاجية تتوفر على التعاون مع المريض لإنتشاله من وهدته التي هوى فيها ربما لظروف قهرته وقهرت أرادته واستحوذت على كل كيانه . فشفاؤه إذا هو تعاون مع المعالج ، مضمون ، الا اذاكان هو أثقل من نقل الصخر [٥] ، وأفرَّ من الزئبق [٦] .

ومن بين تعبيرات الحياة النفسية ، وامضاها كشفاً لنوازع الفرد هي ذكرياته . فالذكريات هي تذكارات يختزنها في كيانه وفي ثنايا ذاته حافلة بما خبره في حياته من تجارب منها السار ومنها الكارب الضار .وليس ثمة ما يسمى أحياناً بـ (ذكريات المصادفة [٧] Chance Memories(. فكأنها ذكريات طرأت على الفرد من عوالم خارج مجمل ذاته المتفاعلة مع ظروفها المعاشة ، لذلك فإن ذكرياته في محتشد مخزونها تمثل له همسات نفسه التي تقول : (انها قصة حياتي) Story of My Life إنها قصة يحكيها مكرورة من غوابر ذاته لجديد ذاته ، يحكيها وفيها عبرة تحذره ، أو تكشف عن خبرة بالراحة تشعره ، قصة حياته تهديه ما إكتنزته من عظات تنير له بأشعاعها موضع هدفه الصحيح ، أو لعلها تهيؤه ، بماضي خبراته ، للأستعداد لمواجهة قابل ايامه الآتيات بسلوك كان قد تمت سلامة اختباره مسبقاً . وان حسن استخدام مخزون الذاكرة لتلمح اثاره ظاهرة في توازن المزاج Mood وفي حسن السلوك في رحاب الحياة اليومية . فاذا كان هناك شخص ما ، يعاني من إنهزام في داخله واحس من جرائه بالخور والإحجام ، فانه في مسلكه هذا يكون قد استذكر أمثلة كانت قابعة في اعماق ذكرياته إذ كانت رواقد فجد ما استدعاها فأحبطته وأجبنته . واذا كان منخولياً فمعنى هذا ان سوابق ذكرياته الكوامن كانت منخولية .

واذا كان مستبشراً ، بشوشاً وشجاعــاً ، فانه في الحالة هذه يصطفي لذاته ذكريــات جــد مغــايرة لتلــك الآنفــة ، و ألأحــداث الــتي يســتذكرها ويسترجعهـا ، هي تلك المفعمة بالأفراح والمسـرات ، تلـك الـتي تؤكـد في أعماق كيانه نزعة التفاؤل . وعلى نفس النهج ، فانـه إذا أحـس بمواجهـة مشكلات مستجدة ، فأنه يستحضر في ذاكرته كوامن ذكريات ملائمـات من شأنها مدّه بالعزم لمجابهة تلك المشـكلات وذلـك بتهيئـة المـزاج الموائـم لديه . فالذكريات بهذا تخدم نفـس الغـرض الـذي تضطلـع بـه الأحـلام . فكثير من الناس عندما تستدعى الضرورات منهـم إتخاذ قـرارات ، فـأنهم يحلمون في منامهم بأمتحانات يرون فيها انفسهم وقـد إجتازوهـا بنجـاح . فمخزون الذكريات يعد من عوامل اعادة توازن المزاجـات . ولهـذا ، فـإن الفرد المنخولي لا يستمر منخولياً إذا هو استعاد في ذاكرتـه أطيـب لحظاتـه وتذكر سابق نجاحاته . هذا ، وان الذكريـات لـن تجـري ضـد تيـار مجـرى أسلوب الحياة .

للذكريـات الباكــرات في حيــاة الانســان أهميتهـا ومغزاهـا مـن مبتـداها. فهي من حيث بداياتها تعكس أسلوب الحياة باصوله التي يتكـيء اليها وجذوره التي يعبر عنها . فمن تلك البدايات نسـتطيع الحكـم مـا إذا كان المرء في طفولته مدللاً أم انه كان مهملاً فلم يلق الإهتمام ؛ ومن تلك البدايات يمكننا أن نعرف ما إذاكان قد تم تعويده علــى التعـاون مـع غـيره والتواصل نفسياً مـع مـن يحيطـون بـه . ومـن هـم الذيـن أحـب التواصـل النفسـي معهـم أكـثر ، مـا هـي المشـكلات الـتي واجهتـه ، وكيـف كـافح ليتصدى لها . وان ذكرياته في الغالب تستيقظ في طوايا عقلـه لتبـدأ تحدثـه بقولها (كنت قـد نظـرت حـولي ....) وفي ذكريـات طفولتـه تسـتعاد إلى مجال النشاط انطباعات ذات طبيعة بصرية ذلك لأن كل ذاكراتـه كـانت يومئذٍ حسية . وجميع ذكريات الطفولة المستذكرة منهـا تكـون أقـرب مـا تكون بعدئذٍ إلى اهتمامـات الفـرد الحـاضرة ، واذا تعرفنـا علـى اهتماماتـه

الأساسية فنكون بذلك أقدر على فهم أهدافه ومراميه ، وبالتالي نستوعب واقع أسلوب حياته . ان هذه لهي الحقيقة التي تجعل لبواكير الذكريات كل هذه القيمة المهمة في التوجيه المهني و الإرشاد النفسي . ومن تلك الذكريات الباكرات نستشف علاقة الطفل بأمه وابيه ، وكيف كانت ، وكيف حدث به أن يكون كما هو عليه بعد تخطي مرحلة الطفولة وأليفاع ووضع أولى خطواته على عتبة المجال الأرحب .

وأكثر ما يلقي ضوءاً كشافاً على حياة الطفل في قصة حياته ، هي الطريقة التي يبدأ بها أحداث طفولته . واولى ما يستذكره من تلك المآخذ والأفراح والصبوات .ولو سألنا أطفال المدرسة ، وتلامذتها ان يكتب كل واحد منهم ما يعنّ له من احداث طفولته ، وحللناها لتفهمنا كثيراً مما كانوا يتطلعون اليه ، لأدركنا معظم ما كانوا يتمنونه واليه ويتوقون . فهي ذكريات تعبر بصدق عن واقع بيئتهم التي عاشوا في كنفها .

دعني ، على سبيل التوضيح و التمثيل ، اذكر قليلاً من الأمثلة عن الذكريات الأولى ، ومن ثم أحاول تفسيرها . واني لا أعرف عن الأفراد شيئاً من قبل أكثر مما أعرفه عن ذكريات تخصهم ذكروها . وان ما يسرد من ذكريات تروي مخزونها يمكن أن يمحص بأساليب أخرى تصدرعن شخصياتهم ذاتها فتتم مضاهاتها؛ ولكن يحسن بنا ان نتأبى في استعمالها كما هي ، وان نفيد منها في الممارسة ودقة التخمين . ومن التفرس بدفائن هذه الذكريات يصبح بوسعنا تحكيم البراعة العقلية فيما إذا كان الفرد إتكالياً أو إستقلالياً في ذاته ، وفيما إذا كان إيجابياً إيثارياً ، أو ذا نزعة سلبيه أنانية . فللبداية التي يستهل بها الفرد حكاية عن ذكرياته ، دلالتها الرمزية ، منها تستقرأ رواقد تجاربه وخبراته . والى القارئ أسوق نماذج من ذلك :

١- (عندما كنا أنا وأختي ....) أنه لمن الأهمية ، أن ننتبه إلى أي الأشخاص حصل أن كان لهم التأثير الأول في حياة الطفل .... (ان أختي كانت ....) فهنا نجد الأخت هي التي نقشت آثارها في اول أحافير الذاكرة . وهذا يسمح لنا بالقول ، ونحن جد متأكدين ، بأن المؤثر الأول في حياة هذا الفتى أو الفتاة كان تأثير الأخت قبل غيرها . ولعل الكاتبة التي ذكرت بواقي آثار الذاكرة في نفسها كانت بنتاً . (وإني لأتذكر بوضوح أن أمي أخبرت كل واحدة منا كم كانت تشعر بالوحشة عندما ذهبنا في أول يوم إلى المدرسة . إذ قالت كم من مرة خلال ذلك اليوم كانت تهرع إلى الباب الخارجي للدار دون وعي منها ، وكررت ذلك عدة مرات قبل عودتنا أنا وأختي إلى المنزل . -أمنا- تفعل ذلك وكأن فيها خشية تساورها من عدم عودتنا). يبدو أن الأم كانت فائضة العاطفه بالغة الحنان ؛ وأن لم يكن وصف صاحبة تلك الذكريات ينمّ عن ذكاء متميز . ولو أتيح لنا أن نسألها لأتضح لنا ان تفضيل الأم كان إلى الأخت الصغرى اجلى . ومن مجمل الذكريات الأولى لهذه الفتاة ، بمقدوري أن أستخلص بأن أختها الصغرى كانت تكوّن عائقاً لها يمنعها من الإنطلاق كما كانت ترغب ، لذا أعتبرت تلك الأخت معوقاً لها ، ومنافساً يستأثر من حنان الأم بقسط أوفى . لهذا نجد فيما بعد من حياة الأخوة والأخوات شيئاً من الغيرة تضطرم في نفوس الأخوة الكبار من أخوانهم الصغار والأخوات الكبيرات من أخواتهن الصغيرات ، فتكون الغيرة هذه مصحوبة بشكل خفي، غير مشعور به في الغالب ، من خوف من المناقشة . لهذا ،فلا يجب أن يدهشنا عندما نجد في معظم الأحيان ، تتفشى بين النساء ظاهرة كراهية المرأة الكبيرة إلى المرأة الصغيرة ، والأحساس غير المعلن بغيرة المرأة الأكبر سناً من تلك الأصغر منها سناً.

٢- (اولى ذكرياتي كانت عن جنازة جدي . كنت في الثالثه من عمري يومذاك [٨] ....) فتاة كانت هي التي كتبت هذا . فكانت متأثرة

حتى الأعماق بحقيقة الموت وهـول منظره كأول خبرة تـرى جلائلها في غضٍّ طفولتها . فماذا كان ذلك يعني لها ؟ ان مهابة الموقف وحدث الموت أنبت في نفسها عدم الأمان ، وغرس في ذاتها ان ليس ثمة ما يمنع الإنسان ويحصنه ضد الغوائل في حياته . أن الأنسان مهـدد . هكذا توالت دوائر خيالاتها إتساعاً . كانت مستفظعة موت جدها . مما يدل على أنها كانت أثيرة عنده ، فأحست في نفسها بخوف مزدوج : انها افتقدت الدلال من جهة ، ومن جهة أخرى ، خضخض كيانها ضخامة المشهد الـذي لم تـألف مثله من قبل . فكأنه أنبأها قبل الأوان بأن مصيرها يوماً ما ، إلى مثل هذا الشأن ، اما متى ؟ فلا تدري . فكأنها باتت مهددة وبلا أمان .

٣- (أذكر عندما كنت في الثالثة من عمري ، والـدي ....) فمن الوهلة الأولى جاء ذكر الأب . وهذا يمكننا من الاستنتاج بأن هـذه الفتاة كانت أشد اهتماماً بأبيها منها بأمها . والمتفق عليه سيكولوجياً ، ان الاهتمام بالأب يمثل دائماً مرحلة ثانية مـن مراحل تطور الطفولة . ففي المرحلة الولى من الحياة يكون الطفل بأمه الصق لأن العناية به ، وحمايته من عوادي البيئة ، وتغذيته ، كل هذه مصدرها الأم . وهذا يتم في العامين أو الثلاثة الأولى من حياة الطفل . فأولى المجابهات النفسية للطفل مع حياتـه ، تبدأ من عند دائرة الأم ومن دفء حجرها .

(.... والدي اشترى لنا حصانين ....) هنا نستدل على أنه كان هناك في اسرة صاحبة الذكريات أكثر من طفل واحد ثم تستطرد صاحبة هـذه الذكريات فنعرف كانت الصغرى . ونستنبط ان أختها الكبرى كانت مفضلة أمها ، لهذا فضلت كاتبة المذكرات أباها .

(كنا في العربة التي يجرها ذانك الحصانان . كانت أختي دائماً هي التي تصر على أن تتولى توجيه الحصانين وتقودهما بالألجمـة [٩]) . (كنا

احياناً نقود حصانينا فكانت دائماً تريد احراز السبق) . فهي كانت تحس بإنكسار في النفس إذ أختها تبزّها . هذا يجعلنا على يقين من أن لسان حالها الصامت يهمس في داخلها : (إذا انا لم أحترز ، فإن الفوز سيكون دائماً في جانب أختي . ذلك سيجعلني دائماً انا الخاسرة ، دائماً أنا الخجلى . لكي أضمن لنفسي الأمان ، عليّ أن أكون أنا الفائزة) . ومن هذا نفهم كذلك أن الأخت الكبرى كانت هي الحائزة بانتباه الأم ، لذا تحولت الصغرى إلى الاستئثار بالمكانة عند الأب .

٤- (أولى ذكرياتي تتعلق باصطحاب اختي الكبرى لي إلى الحفلات والنشاطات والمناسبات الاجتماعية الأخرى ، وكان عمرها ثماني عشرة سنة عندما ولدت) . هذه الفتاة تقترن ذكرياتها بأنها جزء لا ينفصل عن المجتمع ، ولعلنا نجد في مثل هذه الذكريات نوعاً من حب التعاون يتجلى اكثر مما في بقية الذكريات التي مرت بنا حتى الآن في متن الصفحات الآنفة . اختها الكبرى تولت دور الأم للأخت الصغرى ، ولعلها دللتها إلى حد ما ، ولكن يبدو أنها عرفت كيف تقدمها للحياة الاجتماعية بمهارة وذكاء .

٥- (حدث واحد كبير ينتصب ماثلاً في بواكير طفولتي ذلك هو عندما كنت في قرابة الرابعة من عمري جاءت جدة أمي لزيارتنا) مرّ بنا من خبراتنا ان الجدة من جهة الأم أو من جهة الأب تفسد عادة احفادها بالتدليل ، اما كيف تفسد الجدة الكبرى - جدة الأم أو الأب - فذلك ما ليس لدينا فيه خبرة ولا سابق تجربة . (أثناء اقامتها معنا التقطت لنا صورة تضم أجيالاً أربعة) . هذه البنت ، كما يبدو ، كانت شديدة الاهتمام بشجرة العائلة وبسلفها . ومن حديثها عن الصورة ومن ذكرياتها المبكرة عن أسرتها ، لعلنا نستطيع ان نخلص الى أنها كانت وثيقة الالتصاق بافراد ائلتها . واذا كنا محقين في تصورنا هذا ، فيكون بوسعنا

ان نكتشف ان قدرتها في مدّ آفاق التعاون مـع سـائر النـاس الآخريـن لـن تتجاوز حدود أفراد عائلتها فقط.

(وأتذكر بوضوح أننا ذهبنا إلى بلدة أخرى وقد استبدلت ببدلتي بدلة أخرى بيضاء مطرزة بعدما وصلنا إلى ستوديو المصور) . لعل البنت من النمط البصري Visual Type . (بعـدما التقطت لنـا الصورة الـتي تنتظـم الأجيـال الأربعـة ، التقطـت لنـا صـورة أنـا وأخـي تضمنـا نحـن الأثنين).

فهنا نرى ثانية مقدار الاهتمام بالأسرة وأفرادها . (خلال انتظامنا أنا وأخي للصورة أجلس هو على كرسي بمسـندين وأعطيـت لـه كـرة حمـراء ليمسكها أمام آلة التصوير . اما أنا فقد وقفت إلى جانبه وقوفاً على قدمي ولم أعط شيئاً لأمسك به) . مـن هـذا نتبـين أن هـذه البنـت كـان يحـز في نفسها ، إذ ترى أخاها مفضلاً عليها . وبمقدورنا أن نخمن أيضاً أنهـا رأت في ولادة اخيها الأصغر حدثاً يزري بمكانتها في قلوب العائلة ، فأعطي هـو الأفضلية عليها بالتدليل ، فأحتل بدلاً منها ، مكانة ، كانت هي بها أجدر. (طلبوا منا أن نبتسم) . فهي تعني : (انهم حاولوا أن يجعلوني أبتسـم ، ولكن ماذلذي انالوني أياه لأبتسـم مـن اجلـه؛ إنهـم أجلسـوا أخـي علـى عرش وسلّموه كرة حمراء لّماعة ؛ اما أنا فماذا أعطـوني ؟) .

(ثم جاء دور صورة الأجيال الأربعة . إذ كان على كـل واحـد منـا أن يعرض نفسه في الصورة كأحسن ما يكون ما عداي أنا . فماذا عندي. فلا أبتسم اذن) . هنا تبدو أنها تضمر نزعة عدوانية ضد أفراد اسـرتها ، حيث لم يكونوا قد أظهروا نحوها ما تتوقع من عطف كما تراه هي . (اخي ابتسم ، ابتسامة عريضة ، أما أنا فما زلـت حتـى هـذا اليـوم أمقـت تلـك الصورة الـتي التقطـت لنـا) . مثـل هـذه التذكـارات يبمنحنـا نوعـاً مـن

الاستبصار الجيد عن الطريقة التي نواجه بها الحياة . إذ نلتقط فيها انطباعاً واحداً ومن ثم نستخدمه مبرراً نستقريء في ضوئه سلسلة كاملة من الاعتبارات السلوكية مما كتبته هذه الفتاة عن أولى ذكرياتها . ثمة دليلان رئيسيان يبرزان من بين ثنايا أحاسيسها : اولهما ، انها كانت بصرية النمط وثانيهما ، ولعله الأهم ، انها مشدودة إلى اسرتها ، ولكن بتحفظ مع شيء من المضاضة . وربما لم تكن متكيفة كما ينبغي للحياة الاجتماعية .

٦- (واحدة من ذكرياتي القديمة ، ان لم تكن أقدمها ، حصل حدث عندما كنت في الثالثة والنصف من عمري . ذلك ان فتاة أجيرة كانت تعمل عند والدي كليهما ، اخذتنا انا وابنة عمي إلى سرداب عندنا في البيت وهناك أعطتنا شيئاً من شراب السايدر - عصير التفاح المعتق - تذوقناه فأحببناه كثيراً) . فكأن سابق ذكرياتها تقول بلسان حالها : انها لخبرة طريفة أن يكون عندنا سرداب ، وان تكون لدينا مخازن من هذا القبيل في طوابق ارضية من البيت . فهذه كانت بالنسبة لها رحلة إستكشاف . واذا كان لنا ان نتعجل الاستنتاج إستعجالاً ، فلنا أن نحدس واحداً من شيئين إثنين : الأول ، لعل هذه الفتاة تميل إلى مواجهة الظروف الجديدة وانها شجاعة في توجهها نحو الحياة ولعلها من ناحية أخرى ، كانت تعني ان هناك أناساً آخرين يتصفون بإرادات أقوى يستطيعون بها إغواء غيرهم ناحية الزيغ والضلال . (بعد فترة وجيزة مرت على تناولنا شراب السايدر وجدت ساقي وقدمي لا تقويان على حملي . فادركت أنني إرتكبت خطأ) . فهي فتاة تريد أن تتعلم من الأخطاء . وانها قادرة على ان تطور ذاتها إلى ما هو أفضل . وهذه السمة Trait ، يمكن ان تميز مجمل حياتها كلها . فكأنها تقول في ذات نفسها : (أنا يمكن أن أخطيء، لكني سرعان ما أصحح وضع نفسي حالما أرى اني تنكبت عن السبيل السوي) . فاذا كان الأمر كذلك فإن هذا هو نمط جيد ، ونموذج يحتذى : انها فعّالة ، وشجاعة ، تصحح من شأن نفسها قبل

فوات الآوان ، وانها دائماً ترنو إلى اسمى السبل في العيش و الحياة .

في كل ما مرّ بنا آنفاً من أمثلة ، أننا دربنا أنفسنا للكشف عن بعض الطبائع من خلال الحدس و التعليل و التأويل ، وكنا نستهدي إلى استنتاجاتنا عن طريق النظر الى الشخصية ككل .

ولنا الان ان نلتفت إلى أمثلة مستمدة من الممارسة العيانيةبحيث نستطيع أن نتبين من خلال تماسك الشخصية كلها ما تنم عنها تعابيرها وحركاتها .

هذا رجل يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً ، جاءني إلى العيادة وهو يعاني من العصاب الحصري [١٠] Anxiety Neurosis . كان يحس بالحصر و الضيق فقط حينما يكون بعيداً عن البيت . من حين لآخر كان مضطراً إلى أن يؤمّن لنفسه عملاً ، وكان ما ان يشرع بالعمل ، ويجلس إلى مكتبه حتي يبدأ بالتأوه و النشيج يتطور إلى بكاء طوال يومه في مكتب العمل ؛ فلا تتوقف حالته هذه حتى يقفل عائداً إلى المنزل مساء ويجلس بجوار امه . ولما سألته عن أولى ذكرياته ، قال : (.... اتذكر وانا في الرابعة من العمر ، كنت جالساً لصق النافذة في البيت وأنا اراقب الناس يعملون ، ويرحون ويجيئون ، وكان ذلك مما يبعث في نفسي المتعة إذ كنت مرتاحاً والناس يعملون) . لهذا أنطبع في صفحات ذهنه أن يرى الآخرين يعملون ، وان يخلد هو فقط الى الراحة والمراقبة . ترتب على هذا أن استقر في اعماق عقله ان الطريقة الوحيدة لكسب العيش هي أن يبقى يتلقى العون من غيره وان لا يقرب هو أي عمل . فكل همه ، اذن ، قد تركز حول الملاحظة والمراقبة ليس الاّ . ولو أننا عالجناه بالعقاقير الطبية ، وخلاصات الغدد ، فلن نتوصل معه إلى نتيجة تذكر . وقد نصحته ان يجد لنفسه شغلة حرة ، وان يمارس فيها هوايته في النظر و التجول. وقد

استجاب لنصيحتي هذه إذ افتتح محلاً للفن ومن يومها عادت حالته إلى طبيعتها السوية .

وهذا شخص آخر يبلغ الثانية والثلاثين من العمر ، جاءني طالباً العلاج ، يقاسي من حبسة هستيرية [11] Hysterical Aphasia فما كان يطيق النطق بما يتجاوز عتبة الهمس . وقد استمرت هذه الحالة عنده مدة عامين . وقد بدأت لديه بعد أن انزلقت قدمه بقشر موز فهوى على نافذة سيارة أجرة (تاكسي) كانت مارة هناك . على أثر ذلك أخذ يتقيأ لمدة يومين لازمه بعد ذلك صداع نصفي (الشقيقة) . لاشك انه حصل له ارتجاج في الدماغ ، ولكن ما دام هناك عدم تغير عضوي في الحنجرة ، فإن الارتجاج وحده لايكفي لتفسير عدم قدرته على الكلام . استمر مدة ثمانية أسابيع وهو لا يقدر على الكلام . وكانت الحادثة التي تعرض لها معروضة أمام المحاكم ، ولم يبت بها بعد ، ولم يحسم امرها . وكان يعزو الحادث كله إلى خطأ وقع من سائق سيارة الأجرة ، وكان يطالب الشركة التي تمتلك تلك التاكسي بتعويض . كان بوسعنا ان نراه في موقف أفضل في دعواه تلك لو انه كان يعاني من عجز ظاهر . ولا حاجة بنا تدعونا إلى ان نسمه بعدم الأمانة ، لكنه في واقع الحال لم يكن لديه الحافز القوي ليحمله على الكلام بصوتٍ عال . ولعله وجد حقاً صعوبة بالغة في الكلام بعد الصدمة النفسية التي تعرض لها إثر الحادث ، وربما وجد في قرارة نفسه انه ما من سبب يحمله على أن يغير من وضعه النفسي هذا .

عرض المريض نفسه على مختص بالحنجرة ، فوجده سالماً ولا يعاني من أي شيء . عندئذٍ سألته ان يحكي لي شيئاًمن ذكرياته الاولى ، فذكر لنا الآتي : (اتذكر انني كنت مستلقياً على قفاي في المهد . المهد كان متدلياً بخطافين على مسندين متقابلين . واتذكر انني رأيت أحد الخطافين أفلت من مكانه . فسقط المهد وقد اصابني على أثر ذلك أذى شديد) . ما من

أحد يحب السقوط ، لكن هذا الرجل قد بالغ كثيراً في حدوثه وضخمه . (فتحت الباب على اثر السقوط ، وجاءت أمي مسرعة وكانت هلعة مذعور) . فهو قد حقق غاية : إذ أصبح في بؤرة اهتمام أمه وانتباهها بسبب ما تعرض له من سقوط ، لكن هذه الذكرى هي في ذات الوقت تأنيب . (لكن أمي لم تكلف نفسها كثيراً للعناية بي) . وهذا ينسحب على القائه اللوم على سائق سيارة الأجرة . وهذا اسلوب في الحياة يتبعه أولئك الذين يرمون بالمسؤلية دوماً على سواهم . وهذا النوع من السلوك يصدر في الغالب عن النمط المدلل من الأطفال . أو الأطفال الذين يتوقون إلى التدليل . وبالنسبة لهذا الرجل لا علاقة لسقوطه باحتباس كلامه . الا انه ما كان يريد أن يتقبل ذلك أو يفهمه .

فالذاكرة تقوم بوظيفة بيولوجية ، وبوظيفة حافظة . تساعد الانسان على الاستجابة الحالية و السلوك القائم في حاضر الفرد على ضوء تجاربه الماضية . فالماضي موصول بالحاضر عن طريق الذاكرة . فهي تمثل عملية تطور في حياة الانسان ، انها تبدأ بتخزين بعد ذلك الاستجابات المتعلمة المكتسبة ، الاختيارية ، المعقدة . وعبر جميع هذه المراحل تختزن في الذاكرة الخبرات التي تمر بالانسان ، الطيب منها في حياته ، و المقبوح . وكل انواع التجارب هذه تترك أثرها العميق ظاهراً في سلوك الانسان وتصرفاته في الحياة . والأمثلة التي مرّ ذكرها في هذا الفصل تبرهن على صدق ما نذهب اليه .

هوامش الفصل الرابع

١- جدر بضم الجيم المعطشة جمع مفردها جدار . (المترجم)

٢- موميوات جمع مفردها مومياء . (المترجم)

٣- العدمليات : مخلفات الآثار . (المترجم)

٤- الطرح ويفضل لغوياً استعمال كلمة : الإطّراح ، ويراد بها من وجهة نظر التحليل النفسي ، العملية التي يلقي المريض فيها بمشاعره و أحاسيسه وأفكاره المكبوتة ، يلقي بذلك كله على معالجه . ففي هذه العملية يسقط المريض كل ما كان اختزنه من مكبوتات على معالجه . فيجعل معالجه يعايش معه سابق ظروفه . وكأن المعالج أمه أو أبوه أو أحد اخوته . ففي الطرح تفسيرات اسقاطية وجدانية . (المترجم)

٥- مثل عربي يؤدي المعنى تماماً . (المترجم)

٦- مثل عربي يؤدي الغرض الذي ذهب اليه المؤلف .
(المترجم)

٧- المصادفة أفصح وأدق من (الصدفة) . (المترجم)

٨- مما يجدر ذكره والتأكيد عليه هو ان أخوف ما يخافه الطفل هو ذكر الموت ومنظر الجنازة . فذلك مما يملأ نفسه رعباً . (المترجم)

٩- أَلْجِمَة جمع ، ومفردها لجام ، وهو للخيل . (المترجم)

١٠- العصاب الحصري أو عصاب الحصر مرض نفسي أظهر اعراضه الضيق الذي لا يمكن رده إلى سبب معين .ومن مشكلاته ان ينفذ إلى كل كيان الشخصية فتفقد تماسكها . (المترجم)

١١- الحبسة الهستيرية : احتباس الكلام أو العجز عنه بسبب اضطرابات تصيب المناطق الارتباطية . والحبسة اما ان تكون كلية أو جزئية ، وتحدث نتيجة تلف عضوي في الدماغ ، وربما نتيجة صدمة نفسية عنيفة .

١٢- ارتجاج المخ : فقدان الوعي ، لتلقي ضربة على الرأس ، قد يصحبه صدمة أو شلل مؤقت أو فقدان الذاكرة . (المترجم)



الفصل الخامس

.... وللأحلام معنـاها

كل إنسان يحلـم . ومـا أنـدر الذيـن لا يحلمـون . بيـد انهـم قليلـون اولئك الذين يفهمون مالإحلامهم من مغزى . وان هذه الحالة من حـالات شؤون حيـاة الانسـان النفسـية قـد تبـدو علـى جـانب لا يسـتهان بـه مـن الطرافة و الغرابة في آن . وهنا يتجلى لنا نشاط فعال من النشاطات العامة التي يتسم بها العقل البشري . كانت الاحلام وما لبثت تشغل اهتمامـات الانسان في حياته ، وانها دائماً محـيرة لـه ، إذ هـو يتـوق إلى ادراك كنههـا وما عسى ان ترمي اليه . فما أكثر الناس الذيـن يسـتقرئون أبـداً مـا وراء أحلامهم حين يحلمون . فهم يتلمسون آفاق مآتيها ويتطلعون الى اسـتكناه ما تخفى وراءها من أهمية ومغزى . إنهم لا يكتفون بظواهرهـا ومرماهـا . بل أنهم مدفوعون من حيث يعون أو لا يعون ، إلى تدبـر أسـباب تسللـها إلى حيـاتهم العقلية و النفسـية ، وهـم نيـام : فهـي اذن ظـاهرة غريبـة وخطيـرة . واهتمـام الإنسـانية هـذا باحلامهـا قـد عـبرت عنـه بطرائقهـا المتفاوتة من أقدم عهودها على وجـه هـذا الكوكـب . ورغـم هـذا كلـه ، فالناس ما برحوا يقومون بما يقومون به وهم في أحلامهم مسـتغرقون ، بـل هم لا يدرون لماذا يحلمون . فالمسألة عندهـم ضـرب مـن الألغـاز المحـيرة ، وإنّ تبـاينت التفسـيرات و تفـاوتت التـأويلات بصـدد الأحـلام ، ومبلـغ

علمي ، كما أرى ، أن ثمة نظريتيين [1] تحاولان تفسير الأحلام ، وهما نظريتان تنطويان ، كما أظن ، على سمة الاحاطة و الصفة العلمية . و المدرستان اللتان تزعمان انهما اكثر احاطة بفهم الاحلام وتأويلها هما مدرسة التحليل النفسي الفرويدية ، ومدرسة علم النفس الفردي [2] ، ومن بين هاتين المدرستين ، لعل المختصين بعلم النفس الفردي هم الأكثر تأهيلاً في دعواهم لانهم أجدر في تأويل الأحلام ، إذ يجعلون نفسيراتهم ادنى إلى الذوق العام واقرب إلى المعنى المنشود ، فلا تعامش في تأويلاتهم ولا غباشة [3] فيها .

المحاولات الأولى الرامية إلى تفسير الاحلام وفهمها ، لم تكن بطبيعة الحال ، ذات صبغة علمية كما هي عليه الآن ، غير ان هذا لا يعني أبداً انها محاولات لا تستحق التأمل و البحث ، فهي اذن ، محاولات يمكن ان تميط اللثام في الأقل عن الكيفية التي كان ينظر بها الناس إلى احلامهم وكيف كانوا يعتبرونها . وهي في الوقت ذاته تكشف عن اتجاهاتهم إزاء أحلامهم . الأحلام جزء لا يتجزأ من نشاط العقل الإبداعي . واذا ما وجدنا ما يتوقعه الناس من احلامهم وما يبحثون عنه في ثناياها ، فسنكون أقرب في هذه الحالة إلى استبانة الغرض الذي ترمي اليه الأحلام . وللوهلة الأولى من شروعنا بتقصي حقائق الأحلام نجد أنفسنا تواً وجهاً لوجه أمام حقيقة لافتة للنظر . وتلك الحقيقة هي : يبدو دائماً وكأنه من المسلمات بأن الأحلام تحمل دوماً في طياتها الإنباء عن المستقبل . فكأن المستقبل يحتويه ضمير الأحلام وهي به خفية . وما اكثر ما يعتقد الناس بأن في تضاعيف الحلم توجد هناك روح Spirit أو شيء منها ، وان الحلم لا يخلو من روح إله أو انفاس قادمة من عالم الأسلاف ، و الروح هذه الآتية من اجواز الغيب تتملك عقول أولئك الناس و تتحكم في مصيرهم فتؤثر عليهم و تستحوذ . وكثيراً ما كان أولئك الناس أيضاً يستمدون ما هو مضمر في احلامهم للتغلب على ما يواجهون من صعوبات .

فمن وجهة نظر علمية ، تبدو لنا تلك الآراء ساذجة ومدعاة للسخرية . ومنذ الوقت الذي شرعت فيه في محاولاتي لحل مشكلة الأحلام ، كما أراها ، أتضح لي جلياً أن الانسان الذي يمضي شطراً من ليله حالماً يكون اسوأ حالاً في استطلاع طالعه من الشخص الذي يستيقظ صباحاً وهو متمالك قواه ومنتعش في نومه وممسكاً بزمام ملكاته (٤) ، مما ينبئه به تفكيره وذكاؤه وهو في حالة صحوة . بيد ان هذا لا ينبغي أن يصرفنا عن حقيقة تسالم عليها أبناء البشر عبر تقاليدهم : تلك هي إعتقادهم بقدرة الأحلام على الإخطار بالمستقبل ، ولعل هذا لا يجعل اعتقادهم كله يبدو وكأنه خزعبلات بل انه اعتقاد لا بد انه ينطوي على حقائق متواترة . فنحن إذا ما لاحظنا تلك التقاليد و المعتقدات من منظور واقعي صحيح ، فلا شك اننا واجدون فيها سر المفتاح الذي كان في يوم ما مفقوداً . إذ نجد على التو ان الناس ، عبر العصور ، قد حسبوا أحلامهم هيأت لهم حلولاً لمشكلات قائمة في حياتهم . من هذا يصبح بوسعنا أن نخلص إلى أن غرض الفرد من حلمه هو أن ينشد دليلاً يهديه سواء السبيل إلى مستقبلٍ يبتغيه ، انه يتلمس طريقه باتجاه حل لمعضلة تؤرقه . ولكن علينا أيضاً أن نتدبر أين يأمل أن يعثر على ضالته المطلوبة لحل تلك المشكلة . وان مشكلة يتم التوصل إلى حلها خلال الحلم لن تفضل بحال من الأحوال حل مشكلة يتم حلها بالتروي والتدبر أثناء اليقظة .

ومن وجهة النظر الفرويدية نرى ثمة جهداً حقيقياً قد تم تقديمه يرمي إلى اعتبار الحلم ينطوي على معنى يفضي إلى فهمه فهماً علمياً . لكن هذا لا يدرأ عن التفسير الفرويدي للحلم تهمة ثابتة وهي أنه تفسير قد ابعد الحلم عن مجاله العلمي . فهو تفسير يزعم مثلاً ، ان هناك فجوة تفصل بين نشاط العقل خلال النهار ، وما تنشط فيه من احلام إبّان الليل . فحسب التفسير الفرويدي تقام هوّة بين الشعور واللاشعور ، وكأنهما شيئان

متناقضان في ساحتين متناحرتين ، وتصاغ للحلم في هذه الحالة قوانين خاصة تناهض تماماً قوانين التفكير العقلي الذي يسود أثناء الحياة اليومية . وحيثما صادفنا تناقضاً كهذا ، فما علينا الا ان نخلص إلى انه اتجاه ينافي نواميس العقل العلمية . إذ ان التناقض في هذه الحالة لا نجده الا في الحالات العصابية .والاتجاه التناقضي في حياة الفرد لا وجود له الا بين الأشخاص العصابيين . فالفرق مثلاً ، بين اليد اليمنى و اليسرى ، وبين المرأة و الرجل ، وبين الخفيف و الثقيل ، وبين الحار و البارد ، هذه ليست متناقضات ، كما يتوهم بعض الناس ، بل هي متغيرات . انها درجات رسمت على سلّم . وتم ترتيبها على وفق اوجه المقاربة التي تفضي إلى تصور مثالي يتعارف عليه الناس للاطمئنان إلى احكامهم العقلية .

ثمة نقطة نقص اخرى تلحظ في الاجابة الفرويدية ، حيثما يثار سؤال اساسي يتعلق بتفسير الاحلام ، وهو السؤال التالي على سبيل المثاتل : (ما هو غرض الأحلام ؟) أو عندما يطرأ سؤال كهذا : (من أجل أي شيء نحلم يا ترى ؟) . لعل جواب المحلل النفساني يتخذ الشكل التالي : (ان غرض الحلم هو لأشباع رغبات الفرد غير المتحققة ولأرضائها). بيد ان وجهة النظر هذه لا يمكن ان تعني انها تفي بتفسير كل شيء . و للمرء هنا ان يتساءل : فاين هو الإشباع الذي يحققه الحلم في حالة توهان الحلم في ظلمات النفس ، أو عندما ينسى الفرد حلمه ، أو إذا لم يكن بوسعه فهم الحلم ؟ كل البشر يحلمون ولكن قليل عديدهم اولئك الذين يفهمون حقيقة أحلامهم .وهناك رأي آخر يذهب إلى ان الحالم يستمد من الحلم اللذة [٥] . ولنا في هذا الصدد ان نسأل : اية لذة يستمتع بها الحالم إذا كانت حياة الحلم ليلاً منفصلة عن واقع الحياة اليومية الحقيقية ؟ فالحالم في نومه في يقظته هو نفس الفرد : فلماذا ننظر اليه مجزءاً بدلاً من اعتبار شخصيته وحدة متكاملة ؟ ليس بالأمر المنكور ان هناك انماطاً من البشر يجدون إبهاجاً لأنفسهم وإرضاءالرغباتهم في زوايا الأحلام . لكن من هم

هؤلاء النمط من الناس ؟ انهم أولئك الذين كانوا مدللين أيام طفولتهم . فالفرد الذي يكون من هذا النمط تلقاه دائماً يسائل ذاته : (كيف يتسنى لي إرضاء رغباتي واشباع نزواتي ؟). أو قد يسأل : (ما الذي عسى أن تقدمه لي الحياة ؟) .فشخص من هذا النمط يجد الإشباع النفسي في عالم أحلامه. لذلك يمكن القول بأن علم النفس الفرويدي دائم التأكيد دائما على موقف الشخص المدلل ، الذي يشعر بأن غرائزه لا ينبغي أن ينكر عليها الإنطلاق . وأيا كان الأمر ، فإذا كان حقاً بمقدورنا أن نكتشف غرض الحلم ومرماه ، فإنه ليتعين علينا في نفس الوقت أن نتبيّن أيضاً ما هو الغرض الذي يتحقق من الحلم عندما نكون قد نسيناه فلا نتذكره ، أو في حالة أننا نحلم ولكن لا نفقه من حلمنا شيئاً ولا ندرك مغزاه .

هذه كانت إحدى المشكلات الشائكة أمامي حينما شرعت أحاول، منذ ربع قرن من الزمان خلا ، أن أجد معنى للأحلام يخلد اليه المرء مطمئنا . أستطيع الآن أن أدرك بأن الحلم ليس شيئاً مناقضاً للحياة الواعية؛ وإني لأقدّر بأنه دائماً في نفس سياق ديناميات الحياة وتعابيرها الأخرى . فإذا كنا ، خلال النهار منشغلين بالجد المضني في سبيل تحقيق التفوق والسمو كهدف نرنو اليه ، فكذلك نكون أثناء نومنا ليلاً منشغلين بذات الهدف [٦] . فالحلم من هذا المنظور يجب أن يكون محصلة أسلوب الحياة ونمطها المستزاد ، وإنه يجب في الوقت ذاته أن يبني وأن يعزز أسلوب الحياة وفق أقباس الوجدان الإنساني .

ينبغي أن نتحرى غرض الأحلام في ما يتبقى من مشاعر كانت قد أيقظتها الأحلام من رقدتها . ما الحلم الاّ الأداة ، وإنْ هو الا الوسيلة ، التي تستثير الأحاسيس والمشاعر . ولنا بعد ، أن ننقب في ثناياها عن مغزاها وما عسى أن تخفي وراءها . فهدف الحلم في هذه الحالة ، إذن ، إنما نتبينه مما يتركه وراءه من كوامن المشاعر .

والمشاعر التي يستحدثها المرء في ذهنه أو التي تزدحم في مجال عقله اللجب ، لا بدّ أن تكون في سياق أسلوبه في الحياة ، وأن تكون منسجمة مع توجهه الشعوري في الأصل . وأن الإختلاف بين فكرة الحلم Dream thought وفكرة الحياة الواعية للإنسان ، ليس إختلافاً مطلقاً، وليس الفرق بينهما فرقاً شاسعاً ؛ فليس ثمة حد جامد يفصل بينهما . ولنضع هذا الفرق بينهما بصياغة الفاظ أوجز ، فنقول : في حالة الحلم أكثر العلاقات الموجودة في دنيا الواقع تستبعد وتتناثر . لكن هذا لا يعني أننا في حالة الحلم نكون قد إنفصلنا عن الواقع أبداً. فنحن لا ننفك نكون على تماس مع الواقع ونحن نائمون . فإذا ما كنا مضطربين في حياتنا بكثرة مشاكلنا ، نكون كذلك مضطربين في حالة نومنا . فنبقى ، ونحن نائمون ، على أتم إتصال بالعالم من حولنا . فالتواصل في حالة النوم قائم مع العالم الخارجي . غير أن الفرق هو في حالة نومنا لا تكون أدراكاتنا الحسية غائبة، وإنما هي فقط أقل فعالية . فنحن عند الحلم وفي حالته ، إنما نحن وحدنا في جو خاص بنا . والمتطلبات الاجتماعية ، ونحن في أحلامنا مستغرقون ، ليست مطلوبة منا بصورة عاجلة ولا نحن بها مطالبون . وفي أحلامنا ليس مفروضاً علينا أن تكون استجاباتنا للمواقف المحيطة بنا ، إستجابات يجب أن تتسم بالصدق والأمانة والشرف كما هي في حالة تعاملنا في حياتنا الواعية . فحياتنا النائمة الحالمة شيء وحياتنا الواعية اليقظة شيء آخر : بيد أننا ونحن واعون ، وإننا ونحن حالمون ، إننا نحن نحن وليس شخص سوانا . فالفرد في حالة ، وعيه وصحوه وفي حالة نومه وحلمه إنما هو هو لم يتغير منه شيء .

فنومنا ينجو من الاضطراب فقط عندما ننام غير متوترين ومشكلاتنا كانت إبّان النهار قد حلت ونحن من ناحيتها لسنا وجلين[٧] . فإذا كان هناك ما يجلب إلى النوم الهاديء الساكن نوعاً من الإضطراب ، فذلك معناه إجتلاب للحلم . وبمقدورنا أن نخلص إلى أننا نحلم فقط في حالة

تأكدنا من عدم حل مشاكلنا : فقط في حالة إحساسنا بأن الواقع بضغط علينا حتى عند نومنا وأن هذا الواقع يزيد من كثرة مصاعبه علينا . فمهمة الحلم أو وظيفته هي هذه : أن نكون في منامنا وجهاً لوجه مع مشكلاتنا ونلتمس لها حلاً . والآن بوسعنا أن نرى بأي الأساليب تهاجم عقولنا في حالة تأكدنا من عدم حل مشاكلنا: فقط في حالة إحساسنا بأن الواقع يضغط علينا حتى عند نومنا وأن هذا الواقع يزيد من كثرة مصاعبه علينا . فمهمة الحلم أو وظيفته هي هذه : أن نكون في منامنا وجهاً لوجه مع مشكلاتنا ونلتمس لها حلاً . والآن بوسعنا أن نرى بأي الأساليب تهاجم عقولنا مشكلاتنا أثناء نومنا . فخلال النوم نحن لا نواجه الموقف الحياتي كله ، لذا تكون هناك بعض المشكلات العالقة ، فيسهل على العقل عندئذ التصدي لها ، مما يقتضينا شيئاً قليلاً من التكيف وليس بالكثير أثناء النوم . لهذا فالحلم يدعم أسلوب الحياة . ولكن السؤال الآن: لماذا يتطلب أسلوب الحياة دعماً وتعزيزاً ؟ يستبان من ذلك أن غرض الأحلام هو حماية أسلوب الحياة ودعمه ضد المتطلبات الضاغطة المرسلة على البديهة : المتطلبات العفوية غير الحصيفة.

قد يبدو في هذا ما يناقض منطق الحياة الواعية ، بيد أنه لدى التمعن والتمحيص لا يرى المرء فيه ما يتناقض ومنطق الحياة أبداً. ومرد ذلك إلى أننا نستطيع أن نستجيش المشاعر في حياتنا الواعية ونحركها تماماً كما لو تحركت تلك المشاعر من مكامنها ونحن حالمون. فإذا ما واجه إمرؤ ما معضلة معينة في حياته وحاول المراوغة في مواجهتها، فإنه يلتمس مختلف المبررات ليجعل منها مسألة تبعث على الرضا حسب قناعته هو. وما أكثر الذين يرغبون في دنيا الواقع في تحقيق رغبات ضيقة خاصة بهم ولا يريدون بأي شكل أن يسهموا في شيء ينفع مجتمعهم والحياة. وهذا النمط من الأفراد يملؤن عقولهم بصور يتصورونها حافلة بمنافع تخصهم وحدهم . وتصورهم هذا يزين لهم قناعات تجعلهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً .

الأحلام تأتي مناقضة للفطرة السليمة Commom Sense. الفطـرة السـليمة ترتكـز إلى الحكـم الحصيـف ، بينمـا الأحـلام ، تعـد في بعـض جوانبها، نوعاً من الخداع ، وضرباً مـن ضـروب التسـمم الذاتـي -Auto intoxication : أي تعـد نوعـاً مـن أنـواع التنويـم الذاتـي -Self hypnosis (٨) . وجلّ غرض الحلم هو أن يستثير فينا المزاج الذي نواجـه بـه الموقـف المحدد. فعلينـا أن نكـون قـادرين علـى أن نلمـح فيـه نفـس الشخصية وتمامها : الشـخصية الـتي نراهـا علـى حقيقتهـا في واقـع الحيـاة اليومية ، لكن الشخصية التي نتملاها في الحلم هي تلك المصنوعة في معمل العقل . ويتوقف الأمر على المواد والوسائل التي يستخدمها.

ولكن : فماذا نجد ؟

إننا واجـدون ، لأول وهلـة ، أثباجـاً مـن المتراكمـات ، والوانـاً مـن الصـور المليئـة بـالاحداث ، والخواطـر ، والمنـاظر ، والذكريـات . فعندمـا يتملى المرء ماضيه تتداعى على ذهنه صور شتى ومقتطفات منها مـا يدعـو إلى الإستذكار الأتراح ، ومنها ما يبعث على الإنشـراح . ولكـن مـع هـذا كله يظل هدفـه الـذي يتوخـاه هـو المتحكـم بسـيرورة ذواكـره. وهـذا في الأغلب هو ما يحصل في الحلم : ففي الحلم يفرض أسـلوب الحيـاة مسـاره الذي يريد.

فما هي ، يا ترى ، المصادر الأخرى التي يمتاح منها الحلم مادته ؟

منذ أقدم الأيام وحتى وقتنا الذي نحـن فيـه (٩) ، كـان فرويـد يؤكـد بشكل خـاص علـى أن الأحـلام إنمـا يتـم بناؤهـا أساسـاً مـن الاسـتعارات والمجازات ، والتوريات ، والرموز . فلا عجب من أن يعلق أحد النفسانيين قـائلاً : (فنحـن ، إذن ، في أحلامنـا شعراء) . والسـؤال الأن : لمـاذا لا تتكلم الأحلام ببساطة وبصـورة مباشـرة دونمـا حاجـة إلى لغـة التوريـة ، والمجاز والرمز ؟ الأمر يعزى في هذه الحالة ، إلى أن الحلم يبتغي الروغـان .

فيتوخى التعمية ولا يقوى على الثبات أمام منطق الفطرة السليمة . فالآحلام تستطيع أن تستجمع عدة أشياء في شيء واحد ، وهي يمكنها أن تقول شيئين في وقت واحد : ولعل أحد الشيئين يكون زائفاً . ولعل الحلم يصحح لدى المرء سلوكاً أو موقفاً : فكأن الحلم يخاطب صاحبه : لا تتصرف كالطفل . إحذر التهور . أنتبه : فكل شيئ وثمنه [١٠] .

الإستعارة والمجاز من الوسائل الرائعة في اللغة ، ومن أدواتها البديعة الممتعة : ولكن باستخدامنا إيّاها وإغراقنا في لجحها نكون دائماً قد خدعنا أنفسنا وضللنا السبيلِ المباشر إلى القول [١١] . فحينما يصف هوميروس جند الأغريق ، مثلا ، وهم يزحفون فوق حقول الأعداء ، بأنهم أسودٍ ، فانه ليقدم لنا صورة عقلية فخمة ومهيبة . ولكن هل لنا أن نصدق حقاً ما كان يرمي إليه بقوله وهو يصف اولئك الجند المساكين وهم يزحفون مكدودين مضطربين وهم يتصببون عرقاً وملابسهم ملطخة بالوساخة . إننا عندما نرجع إلى واقع تفكيرنا لا نراهم أسوداً بالفعل ، كما وصفهم هو . إنهم أناس مسخّرون بالكاد يلتقطون أنفاسهم ، وهم من الإعياء منهكون . لا شك أن الاستعارة إنما تستخدم ألجمال للتجميل و إنها تستعمل للتصور والخيال . لذا يحق لنا أن نصرّ على أن الاستعارة والرمز إذا ما استخدما على غير وجهيهما يكونان خطرا دائماً لاسيما في أيدي الأفراد الذين يسيئون فهم ناموس الحياة.

ففي الأحلام إستلفات وأحياناً صرف عن واقع مشكلات . ولنضرب مثلاً على ذلك طالب علم يرى نفسه من امتحاناته قاب قوسين. فالمسألة هنا واضحة ومباشرة وصريحة ، وما عليه إلاّ أن يواجهها بحزم وصدق وشجاعة وبفطرة سليمة ورأي حصيف . غير انه إذا كان قد إعتاد على إسلوب في الحياة قوامه المراوغة والتهرب ، فإنه سيحلم دون شك فيرى نفسه إنه يقاتل في ساحة حرب. إنه في حلمه هذا يصور لنفسه

المشكلة الواضحة هذه في صورة استعارة عقلية مضخّمة ، فيجد بذلك لنفسه التبرير بأنه خائف من الإمتحان فيهرب منه بدلاً من ملاقاته بإطمئنان الطالب الواثق المطمئن . وربما يحلم فيرى نفسه كأنه واقف على شفا حفرة لا قرار لها فيرتدّ على عقبيه ويولي هارباً خوفاً من السقوط فيها. فيروح في حياته الواعية يلتمس لذاته في ذاته مشاعر يستعين بها على إجتناب الإمتحان ، وللهرب منه ، فيخدع نفسه بالربط بين الامتحان والهوة السحيقة وهي الحفرة الفاغرة فاها التي ولاّها في المنام دُبُرَهَ. ولنتمثل هنا أيضاً بموقف طالب آخر أكثر شجاعة وإنه يتطلع إلى مستقبل يتمثله في ذهنه ، فيكاد وكأنه يلمحه قريباً . يحلم هذا الطالب فيرى نفسه كأنه واقف على قمة جبل عال يرنو من فوقها إلى ما يحيط به من مروج ومن آفاق فساح. يستيقظ صباح اليوم التالي وهو مسرور وكله نشاط وحيوية . فيمضي إلى إمتحاناته وكله ثقة بذاته ، لأنه عازم على إتمام مهماته الدراسية ليشق سبيله فيما هو آتٍ من مستقبل سبق أن رسمه لنفسه . فصورة الحلم إذن إنما هي تبسيط لموقفه. وإنه بشجاعته التي يحدّث بها نفسه إبّان النهار أرته في منامه أنه يتمكن كيف يقلل من شأن الصعاب فيراها قليلة . لذا فهو يمضي واثقاً في طريق الفوز بالنجاح. فلم يجعل من الحلم مسألة تشغل عقله كله ، فيفسره على هواه فيوحي لنفسه بأن هذا الحلم خدعة ، بل رأى فيه تشجيعاً فحزم أمره وأخذ للموقف أهبته ، فأستورى زند الأمل لذا إتجه بقوة صوب العمل.

لدينا نحن البشر كل الإمكانات والوسائل والأدوات الكامنة مسبقاً في عقولنا ، ومهمتها هي بذل جهدها لِتحكِمَ سيروة إسلوب الحياة ، ولتثبته ، ولتعززه ، وإحدى الوسائل المهمة هذه في حياتنا هي القدرة Ability على إثارة المشاعر فينا وإستثارة أحاسيسنا. وإننا لمنشغلون بهذا ليل نهار ، ولكنه أكثر ما يأتي وضوحاً ، ربما ، إبّان الليل .

ولي أن أسوق هنا مثلاً مصدره خبرتي العملية . كنت أثناء الحرب أعمل رئيساً لمستشفى يعنى بالجنود العصابيين . وكنت عندما أقابل الجنود فأتبين أن بعضهم حالاتهم تستدعي بأن اوكل إليهم مهمات إدارية تعفيهم من المهمات القتالية . وبهذا كنت أقلل بالفعل كثيراً من توتراتهم ومما كان يخفف كثيراً من معاناتهم وعُصاباتهم [١٢] . وكانت هذه طريقتي ، ولكني كنت في حالات صراع مع نفسي ، ذلك لأني أروم التخفيف من معاناة كثير من هؤلاء الجنود ، غير أن كل توصياتي لابد لها من أن تعرض على مرجع عسكري أعلى . وفي إحدى المرات جاءني جندي وحينما قابلته وجدته يتمتع بصحة جيدة لكن حالته تستدعي ، بعض الشيء ، نوعاً من المداراة . وكيفما قلبت الأمر على وجوهه وجدت أنه يمكن أن ينفع في الجبهة ، لكن حالته ستتردى بعد ذلك بسرعة . وقد حكى لي قصته الحياتية وملخصها أنه وحيد أمه وأبيه وأنه طالب جامعي ، وإنه يعمل جزءاً من الوقت ليعيلهما. فقررت في قرارة نفسي أن أقترح على المرجع العسكري ضمه إلى صفوف الحرس بدلاً من إرساله إلى الجبهة . وكان هذا الإقتراح الذي لا يزال آنذاك قائماً فقط في عقلي . وإنه إقتراح لو نُفّذ فإن هذا الجندي سيرسل بعد فترة وجيزة إلى الجبهة . فكنت في صراع مع نفسي محتدم. فحلمت في تلك الليلة رأيت نفسي في الحلم أني مجرم قاتل. وكنت أدور في أزقة ضيقة مظلمة أبحث عن الضحية التي قتلتها. وكنت الوم نفسي على فعلتها الشنعاء تلك. وكنت أراني في الحلم أتوقف أحياناً قليلاً وأنا أتصبب عرقاً و ياله من حلم مفزع لا يُنسى.

إستيقظت مرعوباً من حلمي ذاك رحت أسأل نفسي : (من ذا الذي قتلته في حلمي الذي رأيت ؟) عندئذ خطر على بالي أنه : (إذا أنا لم أعط لهذا الجندي الشاب فرصة العمل في الأشغال الإدارية ، فإنه سيرسل عما قليل إلى الجبهة فيقتل جراء حمله البندقية ، وأكون آنئذٍ أنا القاتل بالفعل) . لذلك قررت ، وأياً كانت ردود فعل الجهات العسكرية

العليا ، أن أخلص هذا الشاب من مهمة عسيرة قد تضره و لاتنفع في النهاية أحداً . ضربت هذا المثل لأبين كيف تستثار فينا المشاعر وكيف توقظ فينا فينا رواقد الأحاسيس فتحتدم في ما بينها في حرب ساحتها ميدان عقولنا.

كثير من الناس قد خبروا في أحلامهم أنهم وجدوا أنفسهم يحلّقون طائرين . المفتاح إلى مثل هذه الأحلام يكمن ، كما يكمن في غيرها ، في المشاعر المستثارة لديهم والتي تكون في الغالب قابعة في طوايا نفوسهم . تأتي تلك المشاعر ومن ثم تتلاشى ، مخلفة وراءها مزاجاً تتملكه البهجة المحلقة بأجنحة من النزوات ، ومحمولة على أشرعة من البدوات . إنها تقود من أسفل إلى علٍ . فتصور للمرء الحالم تذليل الصعاب وتريه هدف التفوق قريب المنال ، فتدفع المرء إلى الحماس وتحقيق طموحه ، وتهمس في لا وعيه النائم : أن إمضِ ولا تتردد . فأحلامه هذه تنطوي على التشجيع ، كما تنطوي على التحذير . وفي هذا مكمن الفوارق الفردية في كل من الإقدام والإحجام . ولتجارب الحياة الواعية القدح المعلّى في هذا المضمار.

يرى بعض الناس في أحلامهم أنهم قد أصيبوا بالشلل ، أو أنهم كانوا يهمون بركون القطار لكنه في آخر لحظة قد فاتهم ولم يلحقوا به ، فكأن الواحد من هؤلاء يقول في أعماق نفسه : (سأكون في غاية الغبطة إذا مرّت هذه المشكلة على ما يرام ولكن دون أن تتطلب جهداً أبذله فيها من جانبي . ولكي أتفاداها عليّ أن أراوغ فيها . يجب أن أتأخر في حضور مناقشتها أو مستلزماتها ، بحيث لا أُواجه بمقتضياتها . يتعين عليّ أن أدع قطار الزمن المُقتضي لها يمضي) . نجد أحياناً كثيراً من الأفراد يحلمون بالامتحانات . فبعضهم بندهش من أن يؤدي إمتحاناً في وقت متأخر من حياته ، وبعضهم يعجب من أن يفرض عليه إمتحان كان قد نجح فيه منذ

زمن خلا. لذلك فإنّ ترجمة الحلـم وتفسيرِه بالنسبة لبعض الأفـراد كأنـه يخاطب الواحد منهم : (إنك لست مؤهـلاً ولا مستعداً لمواجهـة المشكلة التي أنت فيها الآن) . وبالنسبة للفريق الآخر منهـم فكأن الحلـم يخاطب الفرد الواحد منهم بقوله : (إنك قد إجـتزت هـذا الإمتحـان مـن قبـل ، وأنك ستجتاز هذا الإختبار نفسه مرة أخرى في الوقت الواهن) . فالرموز عند هذا الفرد لا تكون هي نفسـها لـدى الفـرد الآخـر . إذ أن مـا ينبغـي تأمله بشكل أساسي في الحلم هو بواقي المزاج وانساقها مع ما ينهجه الفرد من أسلوب في الحياة .

ولقد يحسن أن أسوق مثـلاً يتعلـق بمريضـه بالعصـاب عمرهـا (٣٢) عاماً جاءتني للعلاج. كانت الثانية في الـترتيب بـين إخوتهـا . وكالمعتـاد في الغالب فإن الطفل الثاني يكون ذا طمـوح عريـض . كـانت أمانيهـا دائمـاً تحدوهـا الى أن تكـون الأولى والمتميـزة في كـل شـيئ وأن تحـل مشـكلاتها بنفسـها دون أن تتعـرض إلى تعنيـف مـن أحـد . كـانت تعـاني مـن إنهيـار عصبي عندما جاءت إليّ للعلاج . لكن ما أسباب علتها مؤخراً ؟ كانت قد أحبت شخصاً متزوجاً ذا أسرة يعمل في الأعمال الحرة . وعدهـا بـالزواج ولكنه لم يستطع أن يحصل على إذن بطلاق زوجته . أضف إلى هذا أنه قـد إنهارت تجارته فأصبح لا يسـتطيع الانفـاق حتـى علـى نفسـه تقريبـاً. هـذا الأمر أذهلها . فحلمت قبيل مجيئها إليّ إذ رأت في المنام أنها أجّـرت شقتها إلى أحد الأشخاص ، لكن هذا الشخص المسـتأجر أفلـس بعـد يومـين مـن تحوله إلى الشقة ولم يستطع تسديد الإيجار إليهـا ، لذلـك إضطـرت ، لقـاء عجزه عن التسديد ، أن تخرجه من الشقة . على ضوء هذه الحقائق ، فمـا التفسير ؟

نرى لأول وهلة أن لحلمها هذا علاقة بمشكلتها التي هـي فيهـا كمـا سلف . فهي وجدت نفسها في واقعها مرتبطة عاطفياً برجل أضحـى فقـيراً

بعد أن كان ميسوراً . فأخذت تراجع نفسها : هل تتزوج من شخص لا يحقق لها طموحها . أخذت تتنازعها الأهواء . فمرضت لتتخلص من صراعها . وحلمت لترى اين هي . فالحلم جاء ليستثير لديها مشاعر تكرّهها بالزواج فكان حلمها يحذرها ويقول لها : حدي من طموحك.

من تقنيات علم النفس الفردي أنه يسعى دائماً إلى أن يتبين أفضل العلاج ، مع زيادة ثقة الفرد بنفسه ورفع معنوياته وشحذ شجاعته ليتمكن بذاته من مواجهة مشكلاته في الحياة . فهو ، أيضاً ، علم يمكّننا من أن ندرك أن الحلم أحياناً يغير مجرى أساليبه ويعزز مقدار صلابة إتجاهات المرء إزاء مشكلاته . لذلك فإن طبيعة الأحلام بالنسبة للأشخاص الذين يعانون من أمراض نفسية تتخذ أحلامهم مسارات تتساوق وطبيعة أمراضهم.

وهذه قصة فتاة عمرها (٢٤) سنة ، تعيش وحدها ، وتقوم بأعمال سكرتارية ، تشكو من أن رئيسها في العمل شخص لا يطاق ، وأنه دائماً يضطهدها . وتحس بأنها لا تستطيع أن تكوّن صداقات ، وإذا حدث أن كوّنت صداقة فلا تقدر أن تحافظ عليها . ومن خبرتي أستطيع القول بأن الشخص الذي لا يقدر على المحافظة على الصداقة إنه يفعل ذلك لأنه شخص يرغب في قرارة نفسه أن يسيطر عليهم ويفرض هيمنته عليهم . فهو مدفوع نحوهم لا بدافع حب تكوين العلاقات الإنسانية المتوازنة ، بل بدافع حب الهيمنة ولكنه بذلك لا يشعر ولا يدري [١٣] ، وأن الفرد من هذا النوع يكون هدفه فرض تفوقه بأي ثمنٍ ، وهذا يصدق على الجنسين . ولعل رئيس هذه الفتاة لديه نفس النزعة أيضاً . وحينما تصطدم النزعتان تحتدم المشاكل لأن كل طرف يريد أن يكون هو المهيمن ، تحدوه نزعة لا شعورية حادة . فهذه الفتاة ذات وجه جذاب وهي السابعة بين أخواتها وأخوتها. وكانت مدللة ، وكانت تتمنى لو أنها خلقت ولداً . لذا كان أهلها يلاحظونها فينادونها (توم) ، وهو إسم تحبب (دلع) يقال في الغالب

للصبيان ، وبه يسميهم أهلوهم . فلما نهدت وأصبحت قبّاء[١٤]، أرادت أن تسود الآخرين بجمالها وبصبوتها المكبوتة لأن تكون كالرجال . لهذا راحت إرادتها تصطدم بإرادت الآخرين. وما أكثر ما يحصل هذا لدى النساء! فكانت هذه الفتاة تصبو إلى أن تخضع غيرها ولا سيما الرجال منهم ، بأنوثتها وجمالها وبكامن نزعتها المتطلعة إلى الذكور ، بيد أن الواقع لم يسلس لها القياد.

لذلك كانت ترى تلك الفتاة أحلاماً تجد فيها نفسها في عراك وكرّ وفرّ. وما أحلامها تلك إلا تعبير عن صراع قائم في قرارة نفسها: بين واقعها الأنثوي الذي لا ترضاه ورغبتها الدفينة النزاعة إلى الذكورة وهذا ما كانت تتوق اليه وتتمناه.

فالاحلام من هذه المثابة يمكن إعتبارها ، عبر الزمان ، بمثابة رأس المال القصصي الفكري المخزون ، وإنها لايمكن إنكار مكانتها في حياة الانسان. فهي تضع في مجال إنتباهنا أشياء كنا قد أغفلناها في واقع حياتنا الواعية . وهي ، من ثم ، مرايا تعكس إتجاهاتنا ، وربما أنجازاتنا . وهي ، بعد ، قد تكون رسالة وجود ذاتية ، يمكن أن تنبيء عن المصدر الخفي في دواخلنا فتدلنا عليه. فالأحلام نمط من أنماط سلوكنا نحن البشر .

هوامش الفصل الخامس

١- كان هذا الكلام قبل إختلاف أدلر مع فرويد وانشقاقه عليه.
(المترجم)

٢- أدلر دائماً يؤكد على أن علم النفس الفردي أقدر على الغـوص إلى أعماق الفرد وإستيعابه من داخله . (المترجم)

٣- تعامش عن الأمر ، تغافل ، وكذلك بالسين فيقـال تَقـامس بنفـس تعامش ، واللفظة متداولة ، ومنه العمش وهــو مـا يصيـب العـين مـن آفـة أو كلال. (المترجم)

٤- وجهة النظرة هذه ينفرد بها أدلر وحده . فهناك الآن نظريـات فـي الآحلام كثيرة ، من بينها النظرية الإنبائية ، وهي تنبيء المرء مقدماً بـأمر مـا ، يخصه أو يخص محيطه ، ولنا في حلم يوسف عليه السلام عبرة.
(المترجم)

٥- الإشارة هنا يريد بها أدلر وجهة النظر الفرويدية أيضاً .
(المترجم)

٦- يلاحظ أن ثمة تحولاً تدريجياً في إتجاهات أدلـر إزاء الأحـلام . فهـو بدأ ينظر إليها نظرة تشكـك ، لكنه تحـول إلى النزعة الايجابيـة بشأنهـا ، ولا بأس في ذلك ، فهذا شأن العالم المتجدد. (المترجم)

٧- مثل حياة الإنسان كالمثل السائر : (الحرب في الحياة سجـــال

وعثراتها لا تقال) .   (المترجم)

٨- أراء أدلر هذه بشأن الإشارة إلى أنه لا ينفي الأحلام وأهميتها، لكن له منها موقفاً خاصاً ينظريته في علم النفس الفردي . ومن آراء العلماء كافة تولدت عدة نظريات في الأحلام الآن .

(المترجم)

٩- المقصود الزمن الذي عاش فيه أدلر نفسه .   (المترجم)

١٠- مثل عربي يؤدي تماماً ما قصد إليه المؤلف. والمثل مذكور في: كتاب خاص الخاص ، للثعالبي.   (المترجم)

١١- يريد أدلر القول أن لغة العلم (لا تحتمل كثيرا) المحسنات البديعية والأدوات البلاغية .   (المترجم)

١٢- عصابات (بضم العين) وأعصبة جمع عُصاب وهو المرض النفسي المعروف.   (المترجم)

١٣- تفسير أدلر لهذا لا يخلو من مصداقية وحقيقة علمية ، ولكنه فقط يعبر عن وجهة نظره هو : ووجهة نظر أدلر تقول بأرادة التفوق في الحياة.
(المترجم)

١٤- نهدت : إرتفع نهداها ، وأصبحت قبّاء إرتفع صدرها نضجاً.
(المترجم)

الفصل السادس

الجريمة ودرء مخاطرها

من خلال علم النفس الفردي ، يتسنى لنا أن نفهـم علـى نحـو أوفـى مختلف الأنماط التي يمكن ان تكون عليها الكائنات البشرية ، ويجدر بنـا في المآل الا نسرف في الظـن بأن الكائنـات البشـرية هـذه الـتي نتكلـم عنهـا تختلف فيما بينها إختلافاً يباعد كثيراً بين طبائعها . ذلك لأننا نجـد ، مثلاً ، ان النقص الماثل في سلوك المجرمين ، هو نفــس النقـص الـذي ينعكـس مـن حيث النوع في تصرف الأطفال المشكلين ، وهو نفس النقــص الحـاصل في سلوك الأفـراد الآخريـن مـن النـاس العصـابيين Neurotics ، وفي سـلوك سائر الذهانيين Psychotics ، وفي نزعة الإنتحاريين Suicides (الأفراد الذيـن يقدمـون علـى الانتحـار تخلصـاً مـن الحيـاة) ، في رغبـات المدمنـين Drunkards ، وفي ميول المنحرفين الشاذين جنسياً Sexual Perverts. فهذه الأنمـاط مـن النـاس يفشـل افرادهـا في إرسـاء أقدامهـم علـى المسـار السليم من الحياة ؛ لذلك فهم كثيراً ما يهوون في مهاوي الشطط كل على وفـق مـا ركّـب في تكوينـه النفسـي و العقلـي و الفسـلجي : أنهـم انـاس يعجـزون عـن مواجهـة مشـكلات الحيـاة . فهــم يختلفـون في مســارات إخفاقاتهم ، لكنهم من حيث الفشل و التدني سواسـية . فالنتيجـة هـي ان كل فريق منهم يخفق في التعامل مع اهتمامات الحياة الاجتماعية ووظائفهـا

ومستلزماتها . لذلك لا يلحظ المرء أدنى إهتمام يبدر منهم ازاء أي شخص ممن يحيطون بهم ، فكأنهم عن غيرهم في حالة إغتراب . ومع هذا فنحن لا نتبينهم بسهولة الا بعد ان يظهر على سلوكهم ما يدلّنا عليهم . و الأمر يصدق حتى على الأسوياء الذينِ لا نستدل عليهم الا بعد أن يبرزوا في مجالات التعاون الاجتماعي البناء . لذلك فان المجرمين انما نسمهم بسمة الاجرام و الإخفاق في التكيف حسب الدرجة الحرجة التي تظهر في سلوكهم فتجعلهم موصوفين بها سلوكياً .

ثمة نقطة أخرى ، تقتضينا الضرورة الالتفات اليها من أجل تفهم واقع المجرمين ، لكن هذه النقطة ، وبصرف النظر عن العواطف ، تدعونا الى أن ننظر الى هؤلاء البشر من هذا النوع ، انهم بشر مثلنا لا يختلفون عنا في شيء سوى أنهم ضلوا سواء السبيل لأسباب تحكمت في بنيانهم النفسي و العقلي . فنحن - البشر - جميعاً نصبو الى التغلب على المشكلات و المتاعب . فكلنا ، بلا استثناء ، نكافح من أجل بلوغ هدف يمكّننا فيما بعد من إحراز مكانة تجعلنا نشعر ، عند تحقيقها ، أقوياء في هذه الحياة و اننا متفوقون ، وأننا متكاملون . وكان جون ديوي [١] J. Dewey دائماً يشير الى هذا لذلك أسماه : *الكفاح من أجل الظفر بالأمان*. فهي تسمية جد ملائمة . وهو ميل من صلب نحيزة [٢] الانسان يطلق عليه آخرون : كفاح من أجل المحافظة على الذات : - Self Preservation . وأيّاً ما كان النعت الذي ننعت به هذا الميل ، فلا نعدو حقيقة شاخصة : تلك هي أننا نجد هذا المنسرب دائم التغلغل في أبعد أعماق الكائن البشري - اعني بذلك : الكفاح الرامي الى الارتقاء بالانسان من وهدة النقص Inferiority الى تلعة التفوق Superiority، ومن ثم الأخذ بناصره من حمأة الاندحار الى ذروة الإنتصار ، ومن موقع وضيع الى موقف رفيع . وكل هذا تتأثل جذوره في بواكير طفولتنا ، ومن هناك يتوالى تباعاً حتى نهاية العمر من الحياة .

وهنا نقطة أرغب تأكيدها بقوة ، تلك هي أن ثمة أناساً يعتقدون عكس ما المعنا اليه من قبل . والذين أعنيهم في هذا السياق هم أولئك الذين ينظرون الى المجرمين بوصفهم شواذاً عن الجنس البشري ، يعتبرونهم وكأنهم ليسوا بشراً البتة . فبعض العلماء مثلاً ، يؤكدون ان المجرمين هم أناس من ضعاف العقول Feeble - Minded . وغير هؤلاء آخرون يؤكدون تأكيداً جماً على مسألة الوراثة Heredity عند المجرمين ، اذ يرى هذا الفريق من العلماء ان المجرم انسان سمحت الطبيعة بولادته خطئاً، لذلك فهو لا يتورع عن اقتراف الجريمة . وغير هؤلاء وأولئك ، ثمة نفر من العلماء من يظن ان الجريمة شيء تنبته البيئة بشكل ثابت فتصبح كأنها في دم الانسان مركوزة فلا فكاك له منها . واني من جهتي أرى أن هناك من الدلائل الشيء الكثير يحملني على الاعتقاد بما يناقض تلك الآراء كافة. فاذا كان هناك من يظن انه في حالة تقبلنا أياهم انما نحرم أنفسنا من احتمال معالجة مشكلة الجريمة ، فأنه لظن لا يخلو من أوهام . فنحن مدركون من خلال وحدات التاريخ ككل ، ان الجريمة كارثة لا مماحكة بشأنها ؛ وكلنا يساورنا الآن القلق بصدد العمل على إستئصال شأفتها ، ولا يحق لنا ان نقنع أنفسنا بإدارة ظهورنا الى المشكلة ووضعها على الرف ونحن نقول : فماذا يمكننا أن نعمل ازاء مشكلة متأصلة في (الوراثة ، انها الوراثة ، لذا ليس بوسعنا أن نعمل شيئاً بشأنها) !

فالحقيقة التى لا مراء فيها هي أن ليس ثمة في البيئة فرض اضطراري، ولا الوراثة تحتم مثل هذا الاضطرار الالزامي . فما أكثر ما نرى اطفالاً يتحدرون من ذات الأسرة الواحدة ، وفي نفس ظروف البيئة الواحدة ، ومع ذلك فأنهم يشبون ويكبرون وقد تم نموهم وهم مختلفون في الأمزجة و الطبائع و العادات . وقد رأينا أحياناً أن مجرماً معيناً يكون قد شطأ من أسرة نظيف سجل ماضيها ولا ترقى الى نظافتها الشبهات. وأحياناً أخرى يتحدر أفراد من أسر ليست على جانب كبير من حسن

السمعة ، ورغم ذلك نرى هؤلاء الأفـراد ينزعون دوماً الى ما يكسبهم مكانة الاحترام و التقدير بفضل ما يبـدون مـن حسـن سـلوك و كثيراً ما يحدث ان بعض المجرمين يصلحون من وضعهم السـلوكي فيما يتأتى تالياً من حياتهم . وكـم مـن مـرة عـبر المختصـون بسيكولوجية الجريمة عـن دهشتهم اذ وجدوا لصوصاً ممن يكثرون السطو على المنازل ، جـاء وقـت عندما تجاوزوا الثلاثينات من اعمارهم مثلاً ، وقد تابوا بوازع من ذواتهـم وارادوا التكفير عما اجترحوا في الماضي من سيئات ، وعـبروا عـن عميـق رغباتهم في أن ينضموا الى غيرهم من المواطنين الصالحين .

قبل أن أمضي بعيداً تحـدوني الرغبـة في أن أستبعـد الفكـرة القائلـة بأن المجرمين هم أنـاس مرضـى عقليـاً وانهـم مجانين Insane . لاشـك أن هناك ذهانيين Psychotics يرتكبـون جرائـم ، لكـن جرائمهـم مـن نـوع يختلف تمام الاختلاف عن الجرائم الأخرى مـن حيـث نوعيتها وطبيعتهـا . فجرائم الذهانيين هي من النوع الذي يكون خارجاً عن ارادتهم . وفي هذا السياق يجب أن نستثني أيضاً جرائم ضعـاف العقـول مـن المجرمـين ، ذلـك لأنهم ليسوا سوى أدوات مسـخرة وآلات مسيرة . انما المجرمـون حقـاً هـم أولئك الذين يخططـون بـارادة وتصميـم للجريمـة والأجـرام . فهـم يرسمـون الخطط لضعاف العقول ، ويزينون لهم الطموحات ، و يجمّلون لهم الصـور المرتقبـة فيحملونهـم علـى الإقـدام علـى الجرائـم ، وهـم – أي المخططـون المجرمـون الحقيقيـون – يقبعـون في مخابئهم بعيـداً عـن أعـين الرقبـاء ، لكنهم يدفعون بضحاياهم لتنفيذ الجرائـم ، في حـين أن المجرمـين الدافعين اليها ينجون من قبضة العقـاب . ويصـدق الشـيء ذاتـه ، بطبيعـة الحال ، علـى النـاس الناشئين الأغـرار (٣) ممـن تنقصهـم خـبرات الحيـاة ، فيسـخرهم مـن حيـث يشعـرون أو لا يشعـرون أنـاس أكـبر منهـم سـناً وأكثـر مكراً فيدفعون بهم الى اجـتراح الجرائـم بعـد أن يخطـط لهـا أولئـك الماكـرون .

ولأعد الآن الى نفس الخط الـذي بـدأت فيـه نشـاط البدايـة في هـذا الفصل – وأعني به أن كـل مجـرم وكـل إنسـان في هـذا الوجـود – ينـافح جاهداً ليظفر بالنصر الذي يريد ، و بالفلاح الذي اليـه يتـوق ، ذلـك أنـه توّاق الى الغاية Finality التي ينشـد بقـدر مـا تجـوب آفـاق فكـره . انهـا منافحة من اجل اهداف . بيد أن هناك فوارق شتى واختلافات أربـى بيـن هذه الأهداف ومراميها وأنواعها ، وإنّا لواجـدون ان هـدف المجـرم دائمـاً يتمثل في أن يحرز تفوقاً كما يراه هو وفقاً لسجاياه الخاصة وما طبـع عليـه من رغاب . فتوجهه هذا لا ينال أحد منه خيراً . وان سلوكه لا ينـمّ علـى ما يعزز الروابـط وتوطيـد العلاقـات . فـالمجتمع يتطلـع الى ابنائـه ليوظفـوا قدراتهم في كل ما من شأنه ترسيخ بنائـه . وهـدف المجـرم لا ينطـوي أبـداً على ما هو مجدٍ للمجتمع ، ولا يخطر علـى ذهـن المجـرم مـا نصطلـح عليـه بالنفع الاجتماعي التام . وتجدر الاشارة هنا الى أن نومي ٔ الى درجة وطبيعة فشل المجرم في عملية الدمج الاجتمـاعي و الاندمـاج في رحـاب المجتمـع . ودرجـات اخفاقـاتهم الاندماجيـة تتبـاين الى حـد بعيـد : فبعضهـم يكـون إخفاقه أقل من غيره من حيث الخطورة . بعضهم يقتصـر في إجرامـه علـى جريمة صغيرة ولا يتعداها الى غيرها . وسوى هؤلاء يقترف جرائـم كـبرى ويعاودها . بعض المجرمين يتزعم الإجرام فيخطط للجريمة ويقود مرتكبيها. والأمر كله يتوقف على طبيعة نسق الحياة الذي يستمرئه المجرمون .

فاسلوب الحياة الذي يتشبـع به كـل فرد فيطبع به سلوكه في الحيـاة، انما ينغرس فيه منذ نعومة إظفاره ؛ واننا لواجـدون ملامحـه الأساسـية وقـد تأصلت و الفرد لما يزل بعد في عامه الرابع او الخامس من العمـر . فليـس بمقدورنـا الافـتراض ، اذن ، ان نقـول أنـه لأمـر بمسـتطاعنا ازالتـه بتلـك السهولة . انه لطبع أصبح مشتبكاً في نسيج الفرد الكلي : النفسـي منـه و الفسلجي . إنه شخصية الفرد كلها . لكن ما يمكننا عملـه في هـذه الحالـة هو فقط ان نفهـم حقيقـة الأخطـاء الـتي بـدأت في حيـاة الفـرد فـتراكمت

فتوالت فأنتهت به الى ما آل اليه أمره . هذا ما نتمكن منه فقط ، دونما مزيد الى البهس [٤] من القول . عندئذٍ فقط يتراءى لنا لماذا يحدث أن بعض المجرمين لا يرعوون عن اقتراف نفس الجرائم ولا يكفون عن معاودة إيتيانها ، رغم ما يتعرضون له من العقاب و الحرمان و الإذلال : انهم يبقون على ماهم عليه فلا يرتجى لهم إصلاح ولا ينتظر منهم صلاح .

لدى تأمل وضع هذا النمط من المجرمين في ضوء خبرات علم النفس الفردي ، نتوصل الى انهم أناس فقدوا كل علامة تربطهم بالواقع الاجتماعي ، انهم أفراد أنقطعت الصلة بينهم وبين السياق في الحياة السوية ، وذلك بفعل ما تعمق في البنى الشخصية الخاصة بهم .

علم النفس الفردي بصّرنا فمكننا من ان نتبين هناك ثلاثة أقسام موسعة تنتظم مشكلات الحياة .

أولى هذه المشكلات تتناول مسألة علاقة الانسان بالإنسان . فلا غنى ، بأي حال ، للإنسان عن الانسان . هذا جزء من سنّة هذا الكون. والسؤال الآن : هل يشذ المجرمون عن هذا الناموس الكوني ؟ الجواب : كلا . فللمجرمين اصدقاء لكن اصدقاءهم من نفس فصيلتهم .ولذلك تنحصر صداقاتهم في دوائر ضيقة ، تشمل نفراً من العصابات . لهذا تتناقص مجالات علاقاتهم بالمجتمع على نحو واسع . فيقتصر نشاطهم فيما بينهم فقط ، فتنكمش فعالياتهم ، معتبرين أنفسهم منفيين في المجتمع ، فارضين على أنفسهم الإغتراب ، رغم أنهم في نفس المجتمع يعيشون ومن خيراته يأكلون .

المجموعة الثانية من هذه المشكلات تتناول مسألة الارتباط بعمل معين أو مهنة محددة . فقد وجد أن هناك عدداً كبيراً من المجرمين حينما سئلوا

لماذا يرتكبون جرائم ولا يعملون ، كان جوابهم : (انتم لا تعرفون متاعب العمل وظروفه السيئة) . فهؤلاء المجرمون ، لو تتبعنا تاريخهم القهقرى ، لوجدنا أنهم كانوا في مطالع حياتهم يواجهون عثرات وعوائق واخفاقات ، كل هذه زينت لهم القناعة بالتزويغ و الانحراف بدلاً من تذليل العقبات .

المجموعة الثالثة من مشكلات الاجرام ، تنطوي على فقدان المحبة في بواكير الحياة . فينشأون وقد تعمقت في نفوسهم الكراهية لكل ما في الحياة ، ينشأون وهم فاقدون الاهتمام بكل الحياة . وفقدان الأمل وفقدان الاهتمام يزينان للفرد الانجراف في تيارات دون ان يحسب لعواقبها أي حساب . وكثيراً ما سمعنا من عدد من المجرمين يقولون : (ما الفائدة من الحياة ، وانا لم أجد فيها بعض ما أريد !) .

فما الحل إذن ؟

لا مناص من ابتكار وسائل تعيد المجرمين الى حضيرة [٥] المجتمع . انه لخطر ما بعده خطر ان نتركهم لمشيئة القدر . فقلّ منهم من يرعوي عن غيّه . وطبيعة الإنسان نادراً ما تستجيب لنداء يصدر من اعماق ذاتها يدعوها الى الانصراف الى الخير . لا شك ان للتربية و التنشئة الأثر الفعال. لذلك يجب ان ينال المجرمين قسط من هذه التربية والتي هي في حقيقتها أعادة تربية وتأهيل لهم . فعندما نفهم ماضيهم ، وطموحاتهم ، ومستويات ذكائهم ، وخلفياتهم الأسرية و الاجتماعية ، نستطيع دون شك ان نعيدهم الى ما نرتجيه لهم من صلاح لينضاف صلاحهم الى صلاح سائر الأفراد الآخرين الصالحين من أبناء المجتمع .

ان صفوف المجرمين تضم صفوفاً متفاوتة من الأنماط الاجرامية : فهناك من بينهم : ضعاف العقول ممن يسخرهم غيرهم ، وهناك منهم من

كان يتيماً أو مشرداً ، ومن بينهم من كان يعاني من الحرمان الانفعالي ، ومنهم من كان يقاسي الحرمان المالي فيجد ضالته في إغرائه بالمال ، ومنهم من كان معرّضاً للقسوة والعنت أيام طفولته ، فيعبر عن ذلك تعويضا بالانتقام من الاسرة أو بمن يرمز لها وهو المجتمع ، ومن المجرمين من يندفع الى الاجرام تحت طائلة التخويف و التهديد الذي يقعون تحت طائلته من عتات المجرمين المحترفين ، ومن المجرمين مَنْ يتجه صوب الاجرام بدافع التعويض عن تشويه أو عاهة في خَلْقِهِ : ظاهرة أو مستترة .... الخ .

و النفس ما لم تُربَ على الخير وهي غضة ، فما اسهل أن يجد الشّرّ اليها سبيلاً .

حينما يتقصى المرء سيرة المجرمين ، يجد أن جميع أسباب انحرافاتهم كانت قد نبتت بذورها في أيام حياتهم الغريرة عندما كانوا في كنف والديهم وذويهم . ففي دراسة ضمت بين غلافيها سيرة موضوعية لعدد من المجرمين يبلغ مجموعهم (٥٠٠) فرد . الدراسة كان قد قام بها شيلدون Sheldon و الينور . ت . غلوك Eleanor T. Glueck . ولدى تأمل كل حالة أتضح أن السيرة التي آلت اليها حال صاحبها كانت قاسية أيام الطفولة ، فمن خصام بين الأبوين يؤول بنتائجه السيئة على الأبناء ، ومن حرمان من التعليم المبكر بقصد توجه الولد منذ الصغر بقصد العمل و الكسب ، ومن تشرد ولا أحد يسأله عن المتشرد الصغير، ومن اغراءات من خارج محيط الأسرة تنتهي بالصبي اليافع الى الانجرار وراء الجريمة ، ومن عوامل مفاضلة تصدر عن الآباء في تقريب أحد الأبناء واستبعاد بعضهم مما يدفع بالمنبوذ الى الهرب و الانتقام ... الخ.

من تجاربي الشخصية المستمدة من تعرفي على المجرمين الذين كنت على تماس بأوضاعهم ، ومما قرأته عنهم في المصادر الكثيرة ومن تتبعي ما ينشر

عنهم في الصحافة ، فعلت كل ذلك لأكوّن فكرة متكاملة عن أوضاعهم وعن اتجاهاتهم وعن حقائق تكوينهم ، فوجد أن المفتاح الذي يقدمه لنا علم النفس الفردي [٦] يمكننا بشكل اوفى من فهم ظروف هذه الفئة من البشر . دعني الآن أختر شيئاً قليلاً من الايضاحات عن هؤلاء من كتاب بالالمانية قديم تأليف أنطون فون فويرباخ Anton Van Feuerbach . واني لأجيز لنفسي أن أعلّق بصورة عابرة هنا ، ان خير وصف عن المجرمين قد قرأته في علم النفس القديم Criminal Psychology الذي كتب عن الاجرام بوضوح ودقة .

والى القارئ بعض الحالات المذهلة :

١- حالة كونراد ك. ، قاتل أبيه بمساعدة خادم كان يعمل عندهم. كانت معاملة الأب لأبنه معاملة إهمال ، ونبذ ، وقسوة . بل أن الأب قد أساء معاملة الأسرة كلها . وكان الأب قد قسا على كل فرد من افراد عائلته ، ولكن بصورة أشد و أعتى كانت معاملة الوالد لأبنه كونراد . وبعد أن هجر الوالد أسرته كلها وعاش مع إمرأة أخرى سيئة السمعة ، راح الولد يتسكع في الأزقة و الطرقات ، وقد وجد له من زين له قتل أبيه. وكان الشيطان يعيش تحت جلد كونراد ، ولما وجد التشجيع من شخص متشرد مثله وأكبر منه سناً ، أقدم على قتل أبيه من غير تردد ، ذلك لأن عاطفة الأبن نحو الأب قد جفّت منذ أمد .

٢- وثمة حالة مارغريت زفانزايجر ، ولتي كانت يطلق عليها (القتّالة بالسم الشهيرة) ، كانت قد تولت رعايتها في الصغر جمعيات البر و الاحسان ، وكانت في مظهرها قميئة الجسم مشوهة الخلقة ، لذلك دأبت على المشاكسة وجلب الانتباه لذاتها بأبشع الأساليب التي تستطيعها ومن محاولاتها الأولى الخطيرة ، أقدمت ثلاث مرات على تسميم ثلاث نساء بقصد التخلص منهن لتضمن الزواج من أزواجهن . كانت تشع

بالحرمان ولم تستطع التخلص من رغبة الاحساس بثقل وطأته على نفسها[7] . كتبت في سيرتها الذاتية (وكثير من المجرمين يسرهم اللجوء الى كتابة السير الذاتية ولكن دون ان يفهموا حقاً ما يقولون) ، تقول : (كلما أزمعت على الإقدام على عمل شائن خبيث ، خطر على ذهني أنْ ما من أحد يداخله الأسف من أجلي : واذن فلماذا أقلق اذا انا جعلتهم آسفين ؟) .

٣- هاك حالة ثالثة : ها هنا نجد أمامنا (ن .ل.) .N.L اكبر الأبناء ، أسيئت تنشئته في أسرته ، أعرج في أحد القدمين ، اتخذ لنفسه مكانة الأب في العناية بأخيه الأصغر . ولعله فعل ذلك ليحقق لنفسه تفوقاً كان يتوق اليه ، ولكنه تفوق له جوانبه الايجابية في مثل هذا الموقف ولحد هذه اللحظة ، ولعل الدافع الى ذلك ايضاً التكابر و الرغبة في التفاخر وحب الظهور . ما لبث (ن. ل) هذا أن طرد امه من البيت شر طردة ، اذ رمى بها خارج جدران المنزل وهو يقول لها : (اذهبي الى الجحيم ايتها المتوحشة) . فراحت تتكفف [8] الناس . ولو تأملنا طفولته لوجدنا انه كان ينحدر نحو هاوية الاجرام ، بدلاً من الارتقاء في مدارج النمو بانتظام . كان يتسكع ، فلا يلبث في عمل معين . فما كان منه حتى اقدم على قتل أخيه الذي كان في سالف الأيام يتولى رعايته . وما قتله له الاّ ليتخلص من الإنفاق عليه . فهذا الفرد قد نشأ وكأنه طوّق نفسه بقيود التعطل عن العمل و التبطل المتعمد ، و التشرد ، و القسوة على غيره ، وهي قيود خانقة ، اذا ما أحكمت على صاحبها خناقها ، فلن تدعه يفلت من قبضتها ، وسرعان ما يخرّ صريعاً جراء قسوتها .

٤- واليك ، ايها القارئ ، حالة رابعة لطفل يتيم تبنته إمرأة ونشّأته مع أبنائها . وأولته من الحنان ، حتى دللته وفضّلته على أبنائها . ولما أيقن أنه مدلل ، حسب أن كل شيء في الدنيا يكون طوع ارادته . ولما أن

شب عن الطوق وبلـغ مبلغ الشباب ، وكان عليه ان يـواجه الحياة ، وجد في نفسه الاتكالية و التواكل . فما كان منه الاّ ان انهار حينما وجد نفسه وجهاً لوجه مع الحياة على محك الحياة .

ليس منا من يريد لأي طفل أن يتعرض في حياته الى المثبطات التي من شأنها أن تلوي شكيمة ارادته وان تهصر قوة قدراتــه ، فينشـأ وقـد أُشـبع بعناصر الإنحراف وأُترع بحب الإنتقام . غير أن قولنا هذا لا ينبغي ان يحول دون استهجاننا بـل إسـتقباحنا مـا يقـدم عليـه المجـرم وهـو يختــار طريــق الضلال.ونحن بدورنا نستطيع في أغلب الأحيان أن نصلح من ضلالته وان نعمل على هدايته ، وفي طوقنا أن نقطع على المجرم طريق اجرامه إذا نقبنـا في ثنايا نفسه عما مكث فيها من بقايا خـير ، الا العتـاة منهـم ممـن تمرسـوا بأسباب الجريمة وأستعذبوها . ولعل أول عمل يمكننا من رد كثير منهم الى سواء السبيل يتم بان ننتزع من نفوسهم ما يسمى بالتسـويغ الذاتـي Self Justification - . فالمجرمون في الأغلب يـبررون لأنفسـهم الإقـدام علـى الجريمة كل حســب نظرتـه الى الحيـاة ، وحسـبما واجهـه مـن معوقـات أو مثبطات .

واكبت الجريمة وجود الانسان على هذا الكوكب . وانها لكارثـة ان تكون مسايرة لتـاريخ الانسـانية ، و الانسـانية حتـى الآن لم تستطع منهـا خلاصاً . السبل السليمة للتخلص من مشكلة الجريمة لا تعيينا ، ولكن أنّى لنا أن نتحكم بطبيعة الإنسان التي لا نـدري متـى يسـتحوذ عليهـا شـيطان الإجرام ! .

ها قد مرّ بنا ان المجرم لا يختلف في شكله وفي مظهره شيئاً عـن سـائرٍ أبناء جنسه من البشر . فهو لم يُخلق استثناءاً و لكن سلوكه يعـد شـذوذاً مغايراً تماماً لما ارتضاه المجتمع لنفسه من حب إستقرار ومـا نصبـو اليـه مـن

أمان . ولا نكاد يداخلنا الاندهاش اذا ما اكتشفنا ان المجرم يكون في الغالب قد هيأ نفسه وأعدها للإجرام إعداداً حسبما يستسيغه من نوع الجريمة التي يقدم دائماً على اقترافها وكأنها أضحت من تخصصاته المهنية. وعندما نتتبع ماضي المجرم نجد دون شك ثمة احتجازات كانت قد طرأت في فترة ما ، من فترات حياته الماضية ، ولا سيما إبّان الطفولة و المراهقة وأيام بدايات الشباب ، فجعلته في إتجاهاته مناهضاً لطبيعة الحياة المرتضاة .

فالمجرم ، من زاوية التحليل النفسي ، وحسب مفهوم علم النفس الفردي ، انما هو فرد قد فقد كل تماس يوطد علاقاته بواقع الحياة من حوله ، ثم يفقد الأمل في تحقيق أي نجاح يرى غيره قد حققه ، لكنه يوجه طاقته الى كل ما هو فائل . بيد أنه يستبقي شيئاً من طاقته وقوته ، فيرمي بهذه البقية الباقية من نشاطه فينثرها شروراً بوجه الحياة وعلى كل ما فيها من قيم ومقومات .

المجرم يمضي وقته كله ويهيء نفسه ، فيخطط خلال النهار ويحلم أثناء الليل ، وهو يفكر كيف يخترق آخر ما تبقى له أن يخترقه من حدود الاهتمامات و المصالح الاجتماعية المستقرة. فهو فرد يكون قد عبّأ أفكاره وانفعالاته للإعتداء على الصالح الاجتماعي العام . وانه لينفق جُل وقته يلتمس المعاذير ويتحرى التبريرات التي يتذرع بها لارتكاب الجريمة . فهو يرتكب الجريمة ويعلل لنفسه انه (أضطر الى ذلك) . انه ينظر الى العالم من خلال عينيه هو .

يشرع المجرم بحبك خطة اجرامه و التحضير لها مسبقاً عندما يكون أمام صعوبة ، ولم يأنس في نفسه الشجاعة لمواجهتها ، لذا يبدأ يبحث عن أسهل حل لها . لكن لا بد للمجتمع من أن يحمي ذاته . فثمة مجرم يتآمر ، وهناك مجتمع ينشد الأمان . ولكن من مأمنه يُؤتى الحَذِرُ [٩] . فالمجرم شأنه

شأن أي انسان آخر يصبو الى هدف ويتوق الى التفوق . لكن فرقه عن سائرٍ الناس الأسوياء أنه يتسمت [١٠] سبيلاً ملتوياً لتحقيق بغيته . فهو يكافح لنيل مأربه وانما خارج اطار المجتمع : ان هدفه هو هدف من صنع خيال أفكاره ، يذهب فيه الى التفوق متصوراً نفسه فلتة من فلتات الزمان، قاهراً لإرادة حماة الأمن ، وانه قادر على خرق القانون ، معتدياً على المؤسسات المجتمعية . كل هذه الأفكار تعتمل في عقله ويبررها على هواه الذي يسوّل القبائح . انه فرد يستطيب ما تعارف عليه المجتمع بأنه مستهجن . وعندما يقبض عليه متلبساً بجريمته تجده يقول لنفسه : (لو كنت أشطر ، لنجوت من الخطر) .

لذا نستطيع أن نتبين عقدة النقص تجري معه في مسلكه . اذ هو ينظر لذاته من داخل ذاته فتتبدى له نفسه على حقيقتها حيث يرى ذاته انه عاجز عن النجاح اذا سلك الطريق المستقيم . فيعمد الى اخفاء مشاعر القصور التي تعوي كالذئاب في إهابه ، ويتجه بدلاً من ذلك الى ارتداء مظهر كاذب فينمي في نفسه عقدة تفوق خسيسة . فيوهم نفسه بانه شجاع مقدام . ويوهم نفسه بانه أذكى من غيره .

ان المجرم ليحمل حقاً مشاريع حياته الخاصة به في أحلامه التي يصوغها هو لنفسه . انه فرد يجهل الواقع ومعناه . انه فرد يكلسم [١١] في الحياة فلا يعمل .

هناك شيء جم بمقدورنا فعله . فلا يصح منا أن نتلكأ في أخذ للأمر أهبته . فاذا كنا لا نستطيع تغيير كل مجرم ، فلا أقل من أن نعمل على تخفيف الأعباء [١٢] التي ينوء بثقلها أولئك الأشخاص الذين يجدون أنفسهم تحت وطأة ظروف ربما تؤول بهم الى حمأة الإجرام . اذ باستطاعة المجتمع أن يحاول بغير توانٍ ، ان يستبقي في نفوس أبنائه سوانح الأمل التي تدرأ

غوائل التبطل و تستبعد روح الكسـل البـاعث علـى اليـأس. و انـي لعلـى يقين من اننا بعملنا هذا نكـون قـد توقينـا مغبـة معظـم الشـر الـذي يبـدأ بهفـوة وينتهي بكوارث . ومعظم النـار من مستضعف الشـرر [١٣] .

ومما أنصح هو ان نبتعد في حياتنا الاجتماعية ، ما امكننا الابتعاد عـن كل شيء تُشمُّ فيه رائحة التحدي للمجرمين ، او الحط من اقدار الناس أو تحقيرهم أو التقليل من شأنهم . ذلك لأن مثل هذا النوع من السلوك يثـير حفيظة كل من تنطوي نفسه على شيء من بذور الشر . واني لأؤكد هنـا أيضاً بأن لا نسيء معاملة المتخلفين من الأطفال ولا المشكلين منهـم . فـلا ينبغي لنا مثلاً أن نتحداهم بإظهار قوتنا وإبراز ضعفهم أو انحرافهـم . فمـا السبب الكامن وراء قولنا هذا ؟ ذلك لأنهم سيضطغنون كل هذا التحدي في اعماق نفوسهم ، ومن ثم يعتقدون أنهـم في حالـة حـرب خرسـاء غـير معلنة مع محيطهم الذي يعيشون بـين ظهرانيـه . فينشـأون وهـم يضمـرون إتجاهات مناوئة لكل ما تحفل به الحيـاة. ويجـدر دائمـاً ان نتذكـر أن أكـثر المجرمين نما في نفوسهم الإجرام في مواقف كهذه . كما يجدر أيضاً أن تعلـم انه لا التحدي المصطبـغ بالقسـوة يجـدي مـع المجرمـين ، ولا اللـين المتميـع المتشبع بالشر يهديهم سواء السبيل الذي فيه نطمع . بل ان المجرم ليمكـن تغييره فقط اذا أفلحنا في إفهامه بحقيقة موقفه الشاذ .ولدينا مـن الأسـاليب مالا تعيينا الحيلة في إبتكاره لأصلاح هذه الأنماط من الناس .

كل ما ألمعنا اليه من وسائل يمكن أن تكون فعّالة في الحد مـن أوضـار الجريمة . ولكن ينبغي لنا أن نستذكر حقائق الحياة وطبائع الناس . فمهمـا اجتهدنا للتقليل من الجريمة فلن نتمكن مـن الوصـول الى القضـاء عليهـا . غير أن هذا القول لا ينبغي له ان يثبط من العزائم باتجاه تنشئة النابتـة [١٤] من الأجيال على حب الانتماء الى ابناء مجتمعهم ، وغرس روح الاستهداء بالقدوة المثلى ، فمن شأن ذلك أن ينمي في نفوسهم الطريـة الإنجذاب الى

كل ما هو خير مستطاب ، وتحاشي كل ما هو سيء مستراب . والمتفق عليه بين الباحثين ان الجريمة غالبة التكرار لدى مرتكبيها ممن تتراوح أعمارهم بين (١٥-٢٨) سنة . فهي تبدأ بهذه الأعمار ، ثم تستطرد وتستفحل . وفي جهودنا الرامية الى التقليل من حجم الجريمة يجب ان نتوجه باديء ذي بدء الى جذورها : أعني بذلك ان نبدأ من الطفولة ، فالأسرة و المدرسة هما البيئة الأولى التي تنغرس فيها بوارق المستقبل المرتجى بكل تفاؤله . بيد أنه يجب التحفظ بعض الشيء هنا بشأن الأسرة ، وعلة ذلك قد يكون من العسير أحياناً الوصول الى الآباء لنجري معهم حواراً عما يكون وما لا يكون بصدد تربية أبنائهم على وفق أصول علم النفس . لكن الرجاء كل الرجاء يبقى معقوداً على المدرسة بأعضاء هيئة التعليم فيها . فاذا أفلحنا في جعل المعلمين لمهمتهم مدركين ومستوعبين ، نكون نجحنا في إصلاح معظم النفوس التي قد تضل بالإغواء .

ولي أن أضيف في المآل أن ما ظفرت به حضارتنا من منافع انما تحققت بفضل أناس وفّروا جهودهم ووظفوها لخدمة مجتمعهم . فمثل هؤلاء ينثرون ثمرات اعمالهم النفسية فلا يضنون بها . و الحق ، فلا يلبث في ذاكرة الناس ولا يلبث في ضمائر ابناء المجتمع الا أولئك الذين عرفوا قدر أنفسهم فمنحوه هبة الى أوطانهم . فأرواحهم هي التي تتواصل ، وأرواحهم هي التي تخلد . فمن صفت نفسه ، الى البناء الحضاري وجهها، ومن ألتوت نفسه ، في طريق الضلال وظفها . فهذا ألنمط من الناس - أعني المجرمين - يستهجن الجميل ، ويستطيب الوبيل .والشمس تقبح في العيون الرمد [١٥] .

هوامش الفصل السادس

١- جون ديوي المربي الأمريكي المعروف ، وصاحب الفكرة الذرائعية وقد تسلمها أساساً من وليم جيمس . (المترجم)

٢- النحيزة : الطبيعة . (المترجم)

٣- الأغرار : جمع ، مفردها غر (بكسر الغين) معناها الطفل القليل الخبرة ، و الشاب الذي لم يكتسب بعد تجربة في حياته .
(المترجم)

٤- البهس و البهش : الكلام المزخرف أو الزائد منه ، كما في غب الحاكم . (المترجم)

٥- حضيرة (بالضاد) للإنسان ، و حظيرة (بالظاء) للأغنام و البهائم . (المترجم)

٦- يكرر أدلر أهمية علم النفس الفردي ومكانته ، لأنه علم أوجد أدلر دوره في علم النفس حتى أصبح أشبه بالمدرسة العلمية ، فلا غرو أنه يردد ويؤكد مكانة علم يراه نسيج وحده ضمن الفكر النفسي بوجه عام.
(المترجم)

٧- هذا نموذج في الحياة حاصل ، ولك ان تقابله بقول أبي العلاء المعري :

واللبُّ حاول أنْ يهذّب أهله فإذا البرّيةُ ما لها تهذيب

من رام إتقا الغراب لكي يرى وضح الجناح أصابه تعذيب
(المترجم)

٨- يتكفف الناس : أي يتسول . (المترجم)

٩- مثل عربيٍ ، وانه ليؤدي ما رمى اليه المؤلف حيث اراد القول : ان المجتمع يتعرض أحياناً للمخاطر من بعض مواطنيه . (المترجم)

١٠- تسمت الطريق : أي سار على قارعته . (المترجم)

١١- ذكر ابن الأعرابي : كلسم فلان وكلشم : اذا تكاسل وتمادى . (المترجم)

١٢- والشيء بالشيء يذكر وحمل النقيض على النقيض لا يستكثر، ولنا في هذا السياق ان نذكر قولٍ (العطوي) في شكاية الأخوان:

لي خمسون صديقا بين قاض وأمير
لبسوا الدنيا و لم أخـ لع بهم ثوب الفقير

(المترجم)

١٣- مثل عربي يؤدي المعنى الذي اراده المؤلف . (المترجم)

١٤- النابتة يراد بهم الناشئين من الأبناء من كلا الجنسين ، و المصطلح كان قد صاغه الجاحظ . (المترجم)

١٥- مثل عربي يؤدي بدقة المعنى الذي ذهب اليه المؤلف .
(المترجم)



الفصل السابع

الحب ورابطة الزواج

جرت العادة في إحدى المناطق الالمانية ان يتم اختبار الشخصين المتقديم للزواج ، إختباراً يقصد به ألتحقق عما اذا كانا مناسبين لبعضهما، متكافئين في الزواج ، وانهما مؤهلان ليمضيا حياة تجمعهما معاً. وقبل الاحتفال بعقد القران كان يؤتى بالعريس و العروس ويوضعان على المحك ، فما هو هذا المحك ؟ انه ساق شجرة كانت قد تم اجتثاثها من فوق الارض مسبقاً . فيعطى للمخطوبين منشار بمقبضين ، ويطلب اليهما البدء بنشر ساق الشجرة متقابلين . بهذا الاختبار يتم التعرف على مقدار ما يضمره كل منهما من حب التعاون المشترك من خلال سلوكهما الظاهري ذاك . فهي مهمة تمثل الواجب المتبادل بين شخصين . وبهذا يتيّن المحكمون انه ما لم تكن هناك ثقة متبادلة بينهما ، فانهما ، عند النشر، يبدأ يشد كل واحد منهما من حيث لا يشعر ضد الآخر ، فلا يحققا . بالتالي شيئاً . فاذا كان أحدهما يرغب مثلاً في ان يتولى زمام الأمر وان يقوم هو نفسه دون الآخر بكل شيئ ، فقد وجد أن المهمة تتطلب ضعفاً من الوقت و الجهد ضعفاً من الوقت و الجهد ، حتى لو أرخى الآخر وأسلم القياد . فماذا يستخلص من هذا ؟ يستخلص من ذلك أنه يتعين عليهما كليهما ان يبديا من المبادرة وحسن التعاون ، وان مبادراتهما يجب

أن تلتقي وتلتئم معاً . فمن هذا يتضح ان هؤلاء القرويين الألمان ، قد أدركوا يومذاك ان التآلف وحب التعاون والإقبال عليه ، انما هي عوامل تعد المطلب الأساسي الأول للزواج الناجح .

ولو أني سئلت عما يعنيه كل من الحب و الزواج ، وعن العلاقة الرابطة بينهما ، لعرفتهما كالتالي ، وان لم يكن تعريفاً وافياً : (الحب بكل مقوماته ومستنجزاته ، و الزواج واحد منها ، انما هو شوق دفّاق ، وتفان حميمي ، واخلاص إصطفائي ، يوجه من شخص الى آخر ، يستشعر نفس المشاعر ، ويستبطن نفس الأحاسيس ، فيتأصل الحب في قلبيهما ، وعلى النوايا الصادقات الخالصات تصافيا ، بعد أن أستقرأ كل منهما في الآخر ، سجايا وشمائل إستهوت منهما الفؤادين في آن ، فقرّبت بينهما وأفضت الى زواج أثمر في إنجاب الأبناء . فالحب في هذا السياق ، وفي هذا الاطار ، هو تحنان تأثلت جدواه ليس لصالح إثنين وحسب ، بل إنّ قطافه لتشمل النوع الانساني قاطبة).

فوجهة النظر هذه ، واعني بها ان الحب و الزواج انما هما مؤالفة يتناثر خيرها لصالح الجنس البشري كله ، تلقي ضوءً كشافاً على الموقف برمّته . فغرض الحياة هو إدامة الحياة على وجه هذا الكوكب .

فلا ينبغي لنا بحال ، ان نحكم على الحب و الزواج وكأنهما مشكلتان منعزلتان عن سائر أوجه الحياة ومشكلاتها . فما من أحد منا نحن البشر أن يكون حرّاً بشكل مطلق فيعمل ما يحلو له أو كما يهوى ويشاء . فهو لن يستطيع تأمين الحلول لمشكلاته وفقاً لنهج يؤسس عليه افكاره الخاصة . لكل انسان قيود وحدود ، ذلك أن ارتقاءه طبقاً لمستلزمات الطبيعة تلزمه ان يكيف نفسه وان يخضع قراراته ضمن إطار الواقع واحترامه لواقعه المعاش . اننا نعيش في هذا الكون ، وعلينا أن

نعيش وفق قدراتنا ، وان نحترم أحاسيس سوانا . فبهذا تنتظم الحياة ويسودها الوئام .

يجدر ان لا يفوتنا التنويه هنا ، بأنه إذا ما أبدى الفرد اهتمامه بمن حوله ، واظهر احترامه لما للآخرين من مشاعر ومنافع ، فسيكون كل نشاط يقوم به مشبعاً بروح الغيرية بعيداً عن النزعة الأنوية [٢] . و الشخص الذي تتجه نوازعه باتجاه الخير هذا ، يكون بلا شك زوجاً أو زوجة ، يرنو الى قداسة هذه الروابط القلبية .

النماذج البشرية ما أكثرها ـ و الأنماط السيكولوجية تجمع أشتاتاً منهم ، وكل هذا ينعكس على تصرفاتهم إنْ في حياتهم الفردية ، أم في حياتهم الزواجية . فمن بعض هذه الانماط النفسية مَنْ تراه بدلاً مِنْ أن يسأل : (مالذي عليّ أن أعمله لأسهم في صالح لحياة من حولي ؟) ، نجده يقول : (ما فائدة الحياة ؟ وما جدواها لي ؟ وما مكافأتها لي ؟) . فالنمط الأول كأن يسأل وهو يريد ان يوسع آفاق اهتماماته الى غيره ، والنمط الثاني يسألون ، واسئلتهم تشف عما تحتها من الانسحابية ، والنرجسية ، بل و العدوانية .

فالحب ، تبعاً لذلك ، ليس مهمة طبيعية خالصة ومحضة ، كما يعتقد بعض المختصين بعلم النفس . وليست المسألة مسألة هل الجنس دافع Drive أو غريزة Instinct ، بل المسألة هي ان ينظر الى الحب و الزواج من ناحية الإرتقاء لا من ناحية الجنس و الإرتواء . وعلينا أن نضمن اننا حيثما التقينا أن نتأكد من ان دوافعنا وغرائزنا ، قد هذبت ، وشذبت ، ومن ادرانها قد نقيت . وبذلك يتسنى لنا أن نتيقن من أننا لم نخدش أذواق الناس من حوالينا . فشأن حياتنا الجنسية كشأن أذواقنا Tastes وسجايانا Manners، تلك يجب ان تصفّى من شوائبها كهذه. وبمستوى

تهذيب اخلاقياتنا تقاس حضاراتنا .

إنْ نحن طبقنا هذا الضرب من الفهم على مسألة الحب و الزواج ، فاننا نرى ان الاهتمام بالكل ، و الاهتمام بالانسان ، يجب ان تكون دائماً من متضمنات الاهتمام الكلي [٣] . وهذا الاهتمام من حيث نوعه ومرماه يعد أمراً أساسياً . فلا فائدة ترجى عندما نبحث جوانب الحب ، أو عناصر الزواج ، مجزأة ، أو منفصلة عن التخاطب الانفعالي الإنساني بصيغته المتكاملة . فربما نجد ، لو اننا فحصنا تلك العناصر فرادى ، إجابات أفضل ، وربما نتوصل الى ارتقاء اجمل ، غير أننا يجب ان نعلم ان ما بلغناه من شأو في هذا المضمار ليس بفضل جهد مجرد ، وانما يكون ذلك قد تم لأننا نعيش مع بعضنا جنسين فوق الأرض متمايزين بوظائف متتامة .

الزواج مشاركة روحية تفاعلية بين أثنين يربط بين قلبيهما حب خالص . وما الحب الا من الميول العالية . ولذلك يجب ان يكون ميل أحد الزوجين الى الآخر أكثر من ميله الى نفسه . وهذا النوع من الإيثار يعد الأساس الوحيد الذي يقوم عليه الحب و الزواج الناجحين . والإيثار المتبادل بين الزوجين يعكس تفهم كل منهما للآخر ، ويجعلهما في قرارة نفسيهما يدركان معنى العدل في الزواج . وهذا الضرب من الاتجاهات بينهما تحمل الزوجين على أن يحاول كل منهما أن يثري حياة الآخر ويغنيها بالرضى . وهذا خير صمام أمان لدوام الزواج . فيحس كل واحد منهما مقدار أهميته في عين نفسه وفي عين شريكه في الحياة ، مما يجعل الحياة في نظرهما جديرة بان تعاش وان تستثمر فيها الجهود . وهنا نجد بكل يسر وسهولة المعنى الأساسي للسعادة و العلاقة القائمة على التشارك الوجداني . وهذا توجه لا حُمَّ منه [٤] . ولا يناقض ذلك ، أو يحاول مناهضته الا مَنْ لا معنى عنده للقيم، أو مَنْ لا يعيش بأحْوَرَ[٥] .

فما من أزمة يمر بها الراشد في حياته ويقوى على التصدي لها ما لم يكن قد تم اعداده لها من قبل : و التدريب لمواجهة أزمات الحياة إما أن يكون ذاتياً ، وأما ان يكون مبنياً على أسس مؤسسية مجتمعية . اذ يستحيل على الفرد أن يتولى حل مشكلة تعترضه مالم يكن قد تدرب في حياته وأخذ للأمر نبالته [٦] . ولا ينأى الزواج عن هذا السياق . فهو يتطلب ترويضاً نفسياً ، واعداداً له ، واستعداداً لتقبله ، لأنه يمثل رابطة روحية حياتية . بل انه ليتطلب إفهام الناشئة بمقدار قداسته . لكني لا أنصح بان يتحدث فيه الآباء مع الأطفال في سن مبكرة ، وان لا يكون التحدث عنه بشكل مباشر يدعو الى الاستثارة .وانما أقصد أن يتم الكلام عنه بما يغرس في النفوس الطرية مقام القيم التي تشد من أسر الأسرة حينما يكون الزواج شامخاً على دعائم الفهم الصحيح بين زوجين ارتضيا عن قناعة ان يكونا زوجين .

يستمد الاطفال قناعاتهم عن الزواج مما يكونونه من انطباعات مبكرة مصدرها آباؤهم . لذلك فان احترام معنى الزواج يُستقي بالخبرة ، ويُحتذى بالقدوة .

مهما أسهبنا في ضرورة تقديس الزواج ، ونادينا بوجوب مراعاة مزاياه ، فهل عسانا في ذلك مفلحون ؟

يجدر الا يغرب عن أذهاننا ان هناك من المشكلات ما لايقع تحت حصر ، وكلها قد تكون من عوامل الإخلال بمكانة الزواج وإنزاله من مكانته الرفيعة التي نبنيها له في تصوراتنا مما يهدم صرحه في الحياة . من ذلك مثلاً ، ان الطفل المدلل في طفولته عندما يبلغ سن الزواج يبحث عن زوجة في مخيلته تمنحه ما كان قد اعتاده من دلال . وكم من زيجة فشلت لهذا السبب بعينه . فهو يريد أن يبقى طفلاً كما كان من قبل ، والزوجة

تريد رجلاً يُعتمد عليه ، وهـذا التنـافر يفضـي الى التنـاحر و النتيجـة هـي الافتراق . وربما تكون الزوجة قد أفسد طفولتها التدليل ، فلا تجد الـزوج المتفهم ، فتنتهي حياتهما الزوجية الى نفس المآل .

ثـم هنـاك مشـكلة الـزوج الـذي عـانى أيـام طفولتـه الحرمـان الانفعـالي وحنـان الأم ، فينشـأ وهـو ينشـد التعويـض لـدى زوجـة تعوضـه عـن حنـان الأم ، ومـن ذا الـذي يضمـن لـه ذلـك ، ومـن أمثـال هـذا الـزوج كثيرون . لذلـك تنحـل أواصـر الـزواج على أسـاس هـذا الخطأ السـيكولوجي . وكذلـك الحـال بالنسـبة للمـرأة الـتي قاسـت إيّـان طفولتهـا الحرمـان مـن حنـان الأب ، فيهفـو فؤادهـا الى زوج تعويضي . والنتيجـة كثيراً مـا تـؤول الى الانفصـال بـدلاً مـن إشـباع نواقـص الانفعـال .

ويجـدر ان لا ننسـى سـائر المشـكلات المـألوف منهـا وغـير المـألوف ، والـتي تتحكـم بمصـائر الـزواج . ولكـل مجتمـع تقـاليده ومشـكلاته ، ولكـل حضـارة أسـاليبها وقيمهـا . ومـا أكـثر هـذه وتلـك، وكلهـا مؤثـرات مـا مـنٍ أحـد يسـتطيع أن يحـدس أيـن يكـون وقعهـا أشـد . فمـن ذلـك مثـلاً : هنـاك مـن النـاس مـن يعيـش في حياتـه النفسـية في عـالم مـن الرومانسـية . فمعنـى الحـب عندهـم منظـور اليـه مـن زاويـة خيـالهم المثـالي الجـامح وليـس بمعنـى المثاليـة الإيجابيـة المحبـذة ضمـن حدودهـا المقبولـة . ان هـذا النمـط مـن النـاسٍ ، ومـن الجنسـين ، يرغـب أن يلبـث محلقـاً علـى اجنحـة الخيـال ، بعيـداً عـن واقـع الحـال. لهـذا فإن الـزواج عندمـا يحصـل بـين رجـل رومانسـي وامـرأة واقعيـة او بـين زوجـة رومانسـية ورجـل واقعـي ، أو بـين أثنـين مـن نفـس النمـط ، فـان الـزواج سـينتهي الى فصـم عـرى الروابـط ، مهمـا جـرت محـاولات لـرأب الصـدع .

عندما نتحدث عن التفاهم في الزواج ، نقصد به بأدق عبارة أن يسأل كل من الزوجين نفسه : (هل يحق لي وحدي ان أحصل على كل ما أريد دون أن أدع مجالاً لغيري ؟) . فاذا حدث أن حدّث الزوج بذلك نفسه ، وحدثت وسألت الزوجة نفسها سؤالاً كهذا السؤال ، فمن المؤكد ان تكون أرضية الزواج أصلب امام النوازع الطارئة التي كثيراً ما توسوس بها النفس .

فمن سنن الحياة الكثيرة ، ثمة سنة الزواج ، فهذه السنة الحياتية تفضي بضرورة العيش بين زوجين في بيت واحد طبقاً لنظام مشروع . ولعلة ما ، نرى بعض الأشخاص ، من الجنسين ، من يبقى العمر كله عازفاً عن الزواج . ولكن هل من المستساغ أن نضع سنة الانسانية في الحياة ، في أيدي أمثال هذا النفر القليل من البشر ؟ ان منطق الحياة يرفض ذلك بلا أدنى نقاش .وحينما نبحث فيما وراء المنطق القويم ، و التفكير السليم ، نجد الذين يسوغون لأنفسهم الخروج على المألوف ، لا تنقصهم مفردات منطقهم الجدلي الخاص بهم والذي لأنفسهم أبتدعوه [٧] .

هوامش الفصل السابع

١- الاتجاهات الغيرية او النزعة الغيرية يراد بها إيثار مصلحة الجماعة على المصلحة الذاتية . هذا مبدأ نفسي . ولكن حديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان قد سبق هذا بأكثر من ألف عام : (أحب لغيرك ما تحب لنفسك) او كما قال عليه أفضل الصلاة و السلام.

(المترجم)

٢- الأنوية و الأنانية : حب الذات وإيثار المصلحة الخاصة على مصلحة الآخر وعلى مصلحة الصالح العام . وهذا أيضاً من مصطلحات علم النفس الحديث . (المترجم)

٣- يستخدم أدلر مصطلح (الكل) و (الكلي) Whole حسب المفهوم الجشتطالتي ، لكن تأكيده دائماً ينصب على الفرد حسب مفهومه لعلم النفس الفردي الذي يتزعمه . (المترجم)

٤- لا حُمّ منه : لا بدّ منه .

٥- لا يعيش بأحْوَرَ أو ما يعيش بأحور : أي ما يعيش بعقل كما جاء في : إصلاح المنطق لابن السِكّيت. (المترجم)

٦- أخذ للأمر نبالته : أي استعد له مسبقاً . (المترجم)

٧- يؤكد أدلر في حديثه عن الزواج ، على أنه علاقة تضفي على المجتمعات و الشرائع قدسية واحتراماً . ويؤكد أيضاًعلى جوانب اخلاقية

ينطوي عليها الزواج المشروع ، من ذلك مثلاً انه اساس ديمومة سنة الحياة الانسانية ونمو المجتمعات ، وانه دعامة التطوير و التعمير. وان الزيجات المحرمة أو غير المشروعة ، لا يمكن أبداً ان تترك على وجه هذا الكوكب أثراً يذكر ولا عيثراً - يقال ما رأيت أثراً و لا عيثراً بنفس المعنى - .

فضلاً عن ذلك ، يؤكد أدلر في كتاباته عن الزواج بأنه يمنح كلاً من الزوجين فرصة النضج و التكامل ، وتحقيق الذات ، و الحفاظ على الكرامة .
كما يذهب أدلر الى أن شخصية الفرد الناضجة انما هي ثمرة تنشئه مستقرة أيام الطفولة في أسرة مستقرة قوامها زواج متكافيء ناجح .
(المترجم)



من الأنجازات العلميه للمترجم (الدكتور الجسماني)

أولاً :- مبتكرات

Students Attitudes Towards Various
Aspects of Teachers Training
A Psychological Study
H. Dep . Ld . Psych

Psychological Reserich Into Progressive
Educational Theory and Practice
M. Ed. Psych.

Mc Dougall,s Hormic Theory and
its Influence On Subsequent
Psychological Thought.
Ph . D

ثانياً :- كتب مؤلفة ومترجمة

- الطفل السوى وبعض الخرافات :- مقدمه عامه في سيكيولوجية الطفولة	ترجمة
- المدخل الى علم النفس الحديث	ترجمة
- مأدبة افلاطون في الفلسفة	ترجمة
- مقدمة عامة في فلسفة التربية	ترجمة
- سيكولوجية الطفولة والمراهقة	تأليف

- علم النفس العام — تأليف (مع آخرين)
- علم النفس والتعليم — ترجمة
- علم النفس التربوي — تأليف
- علم التربية وعلم نفس الطفل — ترجمة
- علم النفس وتطبيقاته التربوية والاجتماعية — تأليف
- دراسات نفسية تربوية اجتماعية الجزء الأول — تأليف
- دراسات نفسية تربوية اجتماعية الجزء الثاني — تأليف
- دراسات نفسية تربوية اجتماعية الجزء الثالث — تأليف
- دراسات نفسية تربوية اجتماعية الجزء الرابع — تأليف
- اتجاهات الطلبة نحو مختلف جوانب إعدادهم دراسة نفسية – ميدانية — تأليف
- البحث عن الذات دراسة نفسية تحليلية — ترجمة
- التربية المتجددة دراسة ميدانية — تأليف
- علاجك النفسي بين يديك — ترجمة
- مذكرات فتاة مراهقة — ترجمة
- موسوعة علم النفس القرآني والتهذيب الوجداني .. الجزء الأول — تأليف
- دكتور جيكل ومستر هايد : قصة نفسية — ترجمة
- النظرية الغرضية النفسية وأثرها في تغيير اتجاهات علم النفس الحديث .. الجزء الأول — تأليف
- الوراثة والسلوك الجزء الأول — تأليف
- الوراثة والسلوك الجزء الثاني — تأليف
- الأحلام وقواها الخفية — ترجمة
- رسائل نفسية لها قصة — ترجمة
- العلاج النفسي بين النظرية والتطبيق — تأليف
- آفاق جديدة في علم النفس : الجزء الثاني — ترجمة

- المجتمع المعافى

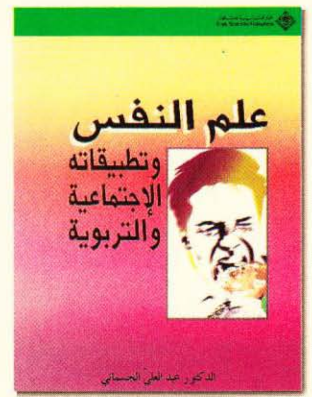
ثالثاً : كتب أنجزت بإشرافه

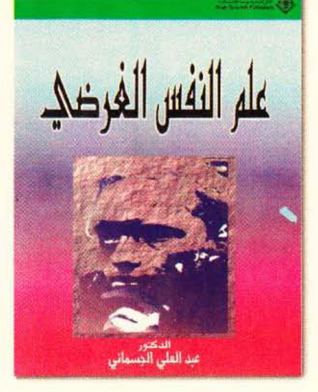
- التفكير الواضح
- علم النفس لكل رجل وامرأة
- القلق

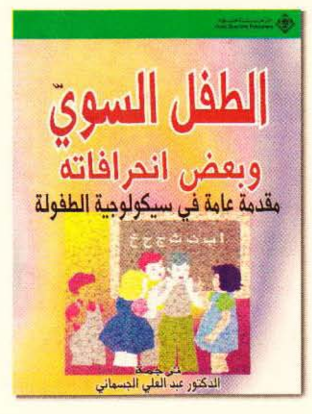


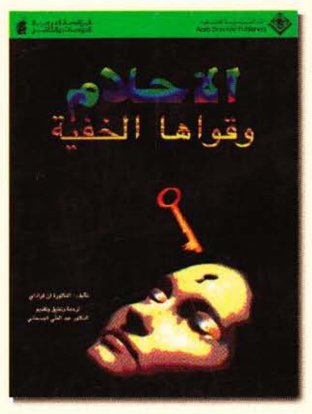
كتب صدرت عن

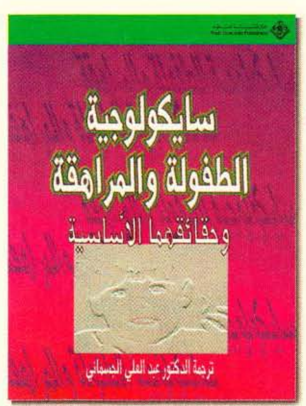
الدار العربية للعلوم

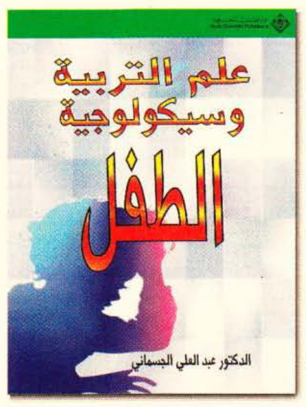


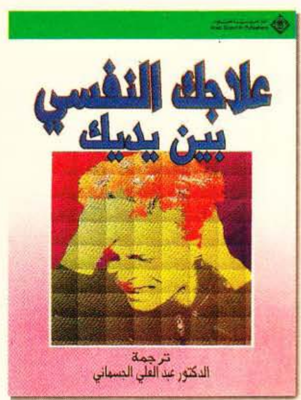


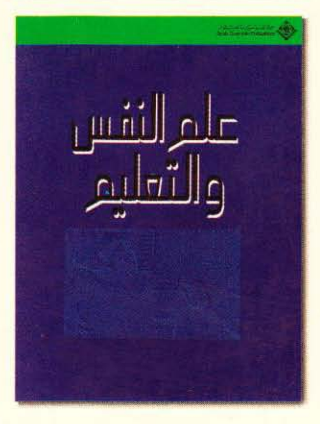















ISBN 2-84409-856-8
9782844098566